الفصل الثاني:
أمراض القلوب وشفاؤها

obeikandl.com

المبحث الأول:

في قلوبهم مرض

هو نوع فساد يحصل له يفسد به تصوره وإرادته فتصوره بالشبهات التي تعرض له حتى لا يرى الحق أو يراه على خلاف ما هو عليه وإرادته بحيث يبغض الحق النافع ويحب الباطل الضار ؛ فلهذا يفسر المرض تارة بالشك والريب ، كما فسر مجاهد وقتادة قوله: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي شك . وتارة يفسر بشهوة الزنا كما فسر به قوله: ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ . ولهذا صنف الخرائطي " كتاب اعتلال القلوب " أي مرضها وأراد به مرضها بالشهوة والمريض يؤذيه ما لا يؤذي الصحيح فيضره يسير الحر والبرد والعمل ونحو ذلك من الأمور التي لا يقوى عليها لضعفه بالمرض . والمرض في الجملة يضعف المريض بجعل قوته ضعيفة لا تطيق ما يطيقه القوي والصحة تحفظ بالمثل وتزال بالضد والمرض يقوى بمثل سببه . ويزول بضده فإذا حصل للمريض مثل سبب مرضه زاد مرضه وزاد ضعف قوته حتى ربما يهلك . وإن حصل له ما يقوي القوة ويزيل المرض كان بالعكس . و" مرض القلب " ألم يحصل في القلب كالغيظ من عدو استولى عليك فإن ذلك يؤلم القلب . قال الله تعالى: ﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ فشفاؤهم بزوال ما حصل في قلوبهم من الألم ويقال: فلان شفي غيظه وفي القود استشفاء أولياء المقتول ونحو ذلك . فهذا شفاء من الغم والغيظ والحزن وكل هذه آلام تحصل في النفس .

وكذلك " الشك والجهل " يؤلم القلب"

قال النبي ﷺ : «**هلا سألوا إذا لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال**» . والشاك في الشيء المرتاب فيه يتألم قلبه حتى يحصل له العلم واليقين ويقال للعالم الذي أجاب بما يبين الحق: قد شفاني بالجواب . والمرض دون الموت فالقلب يموت بالجهل المطلق ويمرض بنوع من الجهل فله موت ومرض وحياة وشفاء وحياته وموته ومرضه وشفاؤه أعظم من حياة البدن وموته ومرضه وشفائه فلهذا مرض القلب إذا ورد عليه شبهة أو شهوة قوت مرضه وإن

حصلت له حكمة وموعظة كانت من أسباب صلاحه وشفائه .

قال تعالى: ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ لأن ذلك أورث شبهة عندهم والقاسية قلوبهم ليبسها فأولئك قلوبهم ضعيفة بالمرض فصار ما ألقى الشيطان فتنة لهم وهؤلاء كانت قلوبهم قاسية عن الإيمان فصار فتنة لهم . وقال: ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ كما قال: ﴿ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ لم تمت قلوبهم كموت الكفار والمنافقين وليست صحيحة صالحة كصالح قلوب المؤمنين بل فيها مرض شبهة وشهوات وكذلك ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ وهو مرض الشهوة فإن القلب الصحيح لو تعرضت له المرأة لم يلتفت إليها بخلاف القلب المريض بالشهوة فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه فإذا خضعن بالقول طمع الذي في قلبه مرض .

والقرآن شفاء لما في الصدور ومن في قلبه أمراض الشبهات والشهوات ففيه من البينات ما يزيل الحق من الباطل فيزيل أمراض الشبهة المفسدة للعلم والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصص التي فيها عبرة ما يوجب صلاح القلب فيرغب القلب فيما ينفعه ويرغب عما يضره فيبقى القلب محبا للرشاد مبغضا للغي بعد أن كان مريدا للغي مبغضا للرشاد . فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة حتى يصلح القلب فتصلح إرادته ويعود إلى فطرته التي فطر عليها كما يعود البدن إلى الحال الطبيعي ويغتذي القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده كما يغتذي البدن بما ينميه ويقومه فإن زكاة القلب مثل نماء البدن .

والزكاة في اللغة: النماء والزيادة في الصلاح . يقال: زكا الشيء إذا نما في الصلاح فالقلب يحتاج أن يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح كما يحتاج البدن أن يربى بالأغذية المصلحة له ولا بد مع ذلك من منع ما يضره فلا ينمو البدن إلا بإعطاء ما ينفعه ومنع ما يضره كذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره وكذلك الزرع لا يزكو إلا بهذا .

والصدقة لما كانت تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار صار القلب يزكو بها وزكاته معنى زائد على طهارته من الذنب . قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ وكذلك ترك الفواحش يزكو بها القلب . وكذلك ترك المعاصي فإنها بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن ومثل الدغل في الزرع فإذا استفرغ البدن من الأخلاط الرديئة كاستخراج الدم الزائد تخلصت القوة الطبيعية واستراحت فينمو البدن وكذلك القلب إذا تاب من الذنوب كان استفراغا من تخليطاته حيث خلط عملا صالحا وآخر سيئا فإذا تاب من الذنوب تخلصت قوة القلب وإراداته للأعمال الصالحة واستراح القلب من تلك الحوادث الفاسدة التي كانت فيه .

فزكاة القلب بحيث ينمو ويكمل . قال تعالى: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً ﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ وقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ﴾ ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴾ وقال تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى ﴾ ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ فالتزكية وإن كان أصلها النماء والبركة وزيادة الخير فإنما تحصل بإزالة الشر ؛ فلهذا صار التزكي يجمع هذا وهذا . وقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ وهي التوحيد والإيمان الذي به يزكو القلب فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب وإثبات إلهية الحق في القلب وهو حقيقة لا إله إلا الله . وهذا أصل ما تزكو به القلوب .

والتزكية جعل الشيء زكيا: إما في ذاته وإما في الاعتقاد والخبر ؛ كما يقال عدلته إذا جعلته عدلا في نفسه أو في اعتقاد الناس قال تعالى: ﴿فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي تخبروا بزكاتها وهذا غير قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ ولهذا قال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ وكان اسم زينب برة فقيل تزكي نفسها فسماها رسول الله ﷺ زينب . وأما قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ﴾

أي يجعله زاكيا ويخبر بزكاته كما يزكي المزكي الشهود فيخبر بعدلهم . و" العدل " هو الاعتدال والاعتدال هو صلاح القلب كما أن الظلم فساده ولهذا جميع الذنوب يكون الرجل فيها ظالما لنفسه والظلم خلاف العدل فلم يعدل على نفسه ؛ بل ظلمها ؛ فصلاح القلب في العدل وفساده في الظلم وإذا ظلم العبد نفسه فهو الظالم وهو المظلوم كذلك إذا عدل فهو العادل والمعدول عليه فمنه العمل وعليه تعود ثمرة العمل من خير وشر . قال تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ . والعمل له أثر في القلب من نفع وضر وصلاح قبل أثره في الخارج فصلاحها عدل لها وفسادها ظلم لها قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ وقال تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ قال بعض السلف: إن للحسنة لنورا في القلب وقوة في البدن وضياء في الوجه وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الخلق وإن للسيئة لظلمة في القلب وسوادا في الوجه ووهنا في البدن ونقصا في الرزق وبغضا في قلوب الخلق .

وقال تعالى: ﴿ كُلُّ امْرِئ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ وقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ وقال: ﴿ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ﴾ وتبسل أي ترتهن وتحبس وتؤسر ؛ كما أن الجسد إذا صح من مرضه قيل قد اعتدل مزاجه والمرض إنما هو بإخراج المزاج مع أن الاعتدال المحض السالم من الأخلاط لا سبيل إليه لكن الأمثل ؛ فالأمثل ؛ فهكذا صحة القلب وصلاحه في العدل ومرضه من الزيغ والظلم والانحراف . والعدل المحض في كل شيء متعذر علما وعملا ولكن الأمثل فالأمثل ؛ ولهذا يقال: هذا أمثل ويقال للطريقة السلفية: الطريقة المثلى . وقال تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا الكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ . والله تعالى بعث الرسل وأنزل الكتب ليقوم الناس بالقسط .

وأعظم القسط عبادة الله وحده لا شريك له ثم العدل على الناس في حقوقهم ثم العدل على النفس .

والظلم " ثلاثة أنواع ": والظلم كله من أمراض القلوب والعدل صحتها وصلاحها .

قال أحمد بن حنبل لبعض الناس: لو صححت لم تخف أحدا أي خوفك من المخلوق هو من مرض فيك كمرض الشرك والذنوب. وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته قال تعالى: ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ . لذلك ذكر الله حياة القلوب ونورها وموتها وظلمتها في غير موضع. كقوله: ﴿ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَياً وَيَحِقَّ القَوْلُ عَلَى الكَافِرِينَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ثم قال: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ ﴾ . ومن أنواعه أنه يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن.

وفي الحديث الصحيح: «**مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت**» وفي الصحيح أيضا: «**اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبورا**».

وقد قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ وذكر سبحانه آية النور وآية الظلمة فقال: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ فهذا مثل نور الإيمان في قلوب المؤمنين ثم قال: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ .

فالأول: مثل الاعتقادات الفاسدة والأعمال التابعة لها يحسبها صاحبها شيئا ينفعه فإذا جاءها لم يجدها شيئا ينفعه فوفاه الله حسابه على تلك الأعمال.

والثاني: مثل للجهل البسيط وعدم الإيمان والعلم فإن صاحبها في ظلمات بعضها فوق بعض لا يبصر شيئا ؛ فإن البصر إنما هو بنور الإيمان والعلم . قال تعالى: ﴿ إِن الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ وقال تعالى . ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ وهو برهان الإيمان الذي حصل في قلبه فصرف الله به ما كان هم به وكتب له حسنة كاملة ولم يكتب عليه خطيئة إذ فعل خيرا ولم يفعل سيئة . وقال تعالى: ﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ وقال: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ ﴾ .

ولهذا ضرب الله للإيمان " مثلين " . مثلا بالماء الذي به الحياة وما يقترن به من الزبد ومثلا بالنار التي بها النور وما يقترن بما يوقد عليه من الزبد . وكذلك ضرب الله للنفاق "مثلين " قال تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴾ وقال تعالى في المنافقين: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴾ ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾

﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . فضرب لهم مثلا كالذي أوقد النار كلما أضاءت أطفأها الله والمثل المائي كالمثل النازل من السماء وفيه ظلمات ورعد وبرق يرى . ولبسط الكلام في هذه الأمثال موضع آخر . وإنما المقصود هنا ذكر حياة القلوب وإنارتها وفي الدعاء المأثور: «**اجعل القرآن ربيع قلوبنا ونور صدورنا**» . و" الربيع " هو المطر الذي ينزل من السماء فينبت به النبات قال النبي ﷺ : «**إن مما ينبت**

الربيع ما يقتل حبطا أو يلم» .

والفصل الذي ينزل فيه أول المطر تسميه العرب الربيع لنزول المطر الذي ينبت الربيع فيه وغيرهم يسمي الربيع الفصل الذي يلي الشتاء ؛ فإن فيه تخرج الأزهار التي تخلق منها الثمار وتنبت الأوراق على الأشجار . والقلب الحي المنور ؛ فإنه لما فيه من النور يسمع ويبصر ويعقل والقلب الميت فإنه لا يسمع ولا يبصر . قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي العُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ الآيات . فأخبر أنهم لا يفقهون بقلوبهم ولا يسمعون بآذانهم ولا يؤمنون بما رأوه من النار كما أخبر عنهم حيث قالوا: ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْه وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ . فذكروا الموانع على القلوب ، والسمع والأبصار وأبدانهم حية تسمع الأصوات وترى الأشخاص ؛ لكن حياة البدن بدون حياة القلب من جنس حياة البهائم لها سمع وبصر وهي تأكل وتشرب وتنكح ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾ .

فشبههم بالغنم الذي ينعق بها الراعي وهي لا تسمع إلا نداء . كما قال في الآية الأخرى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ فطائفة من المفسرين تقول في هذه الآيات وما أشبهها كقوله: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾ وأمثالها مما ذكر الله في عيوب الإنسان وذمها فيقول هؤلاء: هذه الآية في الكفار ، والمراد بالإنسان هنا الكافر فيبقى من يسمع ذلك يظن أنه ليس لمن يظهر الإسلام في هذا

الذم والوعيد نصيب ؛ بل يذهب وهمه إلى من كان مظهرا للشرك من العرب أو إلى من يعرفهم من مظهري الكفر كاليهود والنصارى ومشركي الترك والهند . ونحو ذلك فلا ينتفع بهذه الآيات التي أنزلها الله ليهتدي بها عباده . فيقال: - أولا -: المظهرون للإسلام فيهم مؤمن ومنافق والمنافقون كثيرون في كل زمان والمنافقون في الدرك الأسفل من النار .

ويقال: " ثانيا " الإنسان قد يكون عنده شعبة من نفاق وكفر وإن كان معه إيمان كما قال النبيﷺ في الحديث المتفق عليه: «**أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب وإذا أؤتمن خان وإذا عاهد غدر. وإذا خاصم فجر**» فأخبر أنه من كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق . وقد ثبت في الحديث الصحيح أنه قال لأبي ذر رضي الله عنه: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**» .

وأبو ذر - رضي الله عنه - من أصدق النامس إيمانا وقال في الحديث الصحيح: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية: الفخر بالأحساب والطعن في الأنساب والنياحة والاستسقاء بالنجوم**» وقال في الحديث الصحيح: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**» . قالوا: اليهود والنصارى قال: «**فمن**» وقال أيضا في الحديث الصحيح: «**لتأخذن أمتي ما أخذت الأمم قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع**» . قالوا: فارس والروم قال: «**ومن الناس إلا هؤلاء**» . وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب محمدﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه وعن علي - أو حذيفة - رضي الله عنهما ما - قال: القلوب " أربعة " .

قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب أغلف فذاك قلب الكافر وقلب منكوس . فذاك قلب المنافق وقلب فيه مادتان: مادة تمده الإيمان ومادة تمده النفاق فأولئك قوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا . وإذا عرف هذا علم أن كل عبد ينتفع بما ذكر الله في الإيمان من مدح شعب الإيمان وذم شعب الكفر وهذا كما يقول بعضهم في قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ .

فيقولون المؤمن قد هدي إلى الصراط المستقيم فأي فائدة في طلب الهدى ثم يجيب بعضهم بأن المراد ثبتنا على الهدى كما تقول العرب للنائم: نم حتى آتيك أو يقول بعضهم ألزم قلوبنا الهدى فحذف الملزوم ويقول بعضهم زدني هدى وإنما يوردون هذا السؤال لعدم تصورهم الصراط المستقيم الذي يطلب العبد الهداية إليه ؛ فإن المراد به العمل بما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه في جميع الأمور .

والإنسان وإن كان أقر بأن محمدا رسول الله وأن القرآن حق على سبيل الإجمال فأكثر ما يحتاج إليه من العلم بما ينفعه ويضره وما أمر به وما نهى عنه في تفاصيل الأمور وجزئياتها لم يعرفه وما عرفه فكثير منه لم يعمل بعلمه ولو قدر أنه بلغه كل أمر ونهي في القرآن والسنة فالقرآن والسنة إنما تذكر فيهما الأمور العامة الكلية لا يمكن غير ذلك لا تذكر ما يخص به كل عبد ولهذا أمر الإنسان في مثل ذلك بسؤال الهدى إلى الصراط المستقيم . والهدى إلى الصراط المستقيم يتناول هذا كله يتناول التعريف بما جاء به الرسول مفصلا ويتناول التعريف بما يدخل في أوامره الكليات ويتناول إلهام العمل بعلمه فإن مجرد العلم بالحق لا يحصل به الاهتداء إن لم يعمل بعلمه ولهذا قال لنبيه بعد صلح الحديبية: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾ وقال في حق موسى وهارون: ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الكِتَابَ المُسْتَبِينَ ﴾ ﴿ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ ﴾ والمسلمون قد تنازعوا فيما شاء الله من الأمور الخبرية والعلمية الاعتقادية والعملية مع أنهم كلهم متفقون على أن محمدا حق والقرآن حق فلو حصل لكل منهم الهدى إلى الصراط المستقيم فيما اختلفوا فيه لم يختلفوا ثم الذين علموا ما أمر الله به أكثرهم يعصونه ولا يحتذون حذوه فلو هدوا إلى الصراط المستقيم في تلك الأعمال لفعلوا ما أمروا به وتركوا ما نهوا عنه والذين هداهم الله من هذه الأمة حتى صاروا من أولياء الله المتقين كان من أعظم أسباب ذلك دعاؤهم الله بهذا الدعاء في كل صلاة مع علمهم بحاجتهم وفاقتهم إلى الله دائما في أن يهديهم الصراط المستقيم . فبدوام هذا الدعاء والافتقار صاروا من أولياء الله المتقين .

قال سهل بن عبد الله التستري: ليس بين العبد وبين ربه طريق أقرب إليه من الافتقار

وما حصل فيه الهدى في الماضي فهو محتاج إلى حصول الهدى فيه في المستقبل وهذا حقيقة قول من يقول: ثبتنا واهدنا لزوم الصراط . وقول من قال: زدنا هدى يتناول ما تقدم ؛ لكن هذا كله هدى منه في المستقبل إلى الصراط المستقيم ؛ فإن العمل في المستقبل بالعلم لم يحصل بعد ولا يكون مهتديا حتى يعمل في المستقبل بالعلم وقد لا يحصل العلم في المستقبل بل يزول عن القلب وإن حصل فقد لا يحصل العمل فالناس كلهم مضطرون إلى هذا الدعاء ؛ ولهذا فرضه الله عليهم في كل صلاة فليسوا إلى شيء من الدعاء أحوج منهم إليه وإذا حصل الهدى إلى الصراط المستقيم حصل النصر والرزق وسائر ما تطلب النفوس من السعادة والله أعلم .

واعلم أن حياة القلب وحياة غيره ليست مجرد الحس والحركة الإرادية أو مجرد العلم والقدرة كما يظن ذلك طائفة من النظار في علم الله وقدرته كأبي الحسن البصري . قالوا: إن حياته أنه بحيث يعلم ويقدر بل الحياة صفة قائمة بالموصوف وهي شرط في العلم والإرادة والقدرة على الأفعال الاختيارية وهي أيضا مستلزمة لذلك فكل حي له شعور وإرادة وعمل اختياري بقدرة وكل ما له علم وإرادة وعمل اختياري فهو حي . والحياء مشتق من الحياة ؛ فإن القلب الحي يكون صاحبه حيا فيه حياء يمنعه عن القبائح فإن حياة القلب هي المانعة من القبائح التي تفسد القلب ولهذا قال النبي ﷺ : «**الحياء من الإيمان**» وقال: «**الحياء والعي شعبتان من الإيمان. والبذاء والبيان شعبتان من النفاق**» فإن الحي يدفع ما يؤذيه ؛ بخلاف الميت الذي لا حياة فيه [فإنه] يسمى وقحا والوقاحة الصلابة وهو اليبس المخالف لرطوبة الحياة فإذا كان وقحا يابسا صليب الوجه لم يكن في قلبه حياة توجب حياءه ، وامتناعه من القبح كالأرض اليابسة لا يؤثر فيها وطء الأقدام بخلاف الأرض الخضرة .

ولهذا كان الحي يظهر عليه التأثر بالقبح وله إرادة تمنعه عن فعل القبح بخلاف الوقح الذي ليس بحي فلا حياء معه ولا إيمان يزجره عن ذلك . فالقلب إذا كان حيا فمات الإنسان بفراق روحه بدنه كان موت النفس فراقها للبدن ليست هي في نفسها ميتة بمعنى زوال حياتها عنها . ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ** ﴾ وقال تعالى: ﴿ **وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ** ﴾ مع أنهم موتى

داخلون في قوله: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ وفي قوله: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ وقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ فالموت المثبت غير الموت المنفي. المثبت هو فراق الروح البدن والمنفي زوال الحياة بالجملة عن الروح والبدن. وهذا كما أن النوم أخو الموت فيسمى وفاة ويسمى موتا وإن كانت الحياة موجودة فيهما. قال الله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. وكان النبي ﷺ إذا استيقظ من منامه يقول: «**الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور**» وفي حديث آخر: «**الحمد لله الذي رد علي روحي وعافاني في جسدي وأذن لي بذكره وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلا**» وإذا أوى إلى فراشه يقول: «**اللهم أنت خلقت نفسي وأنت توفاها لك مماتها ومحياها إن أمسكتها فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين**» ويقول: «**باسمك اللهم أموت وأحيا**».

والقلب إنما خلق لأجل " حب الله تعالى ".

وهذه الفطرة التي فطر الله عليها عباده كما قال النبي ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»؛ كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه اقرؤوا إن شئتم: ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾[1].

فالله سبحانه فطر عباده على محبته وعبادته وحده؛ فإذا تركت الفطرة بلا فساد كان القلب عارفا بالله محبا له عابدا له وحده لكن تفسد فطرته من مرضه كأبويه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه وهذه كلها تغير فطرته التي فطره عليها وإن كانت بقضاء الله وقدره - كما يغير البدن بالجدع - ثم قد يعود إلى الفطرة إذا يسر الله تعالى لها من يسعى في إعادتها إلى الفطرة. والرسل صلى الله عليهم وسلم بعثوا لتقرير الفطرة وتكميلها لا لتغيير الفطرة وتحويلها وإذا كان القلب محبا لله وحده مخلصا له الدين لم يبتل بحب غيره - أصلا - فضلا

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

أن يبتلى بالعشق . وحيث ابتلي بالعشق فلنقص محبته لله وحده . ولهذا لما كان يوسف محبا لله مخلصا له الدين لم يبتل بذلك بل قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ وأما امرأة العزيز فكانت مشركة هي وقومها فلهذا ابتليت بالعشق وما يبتلى بالعشق أحد إلا لنقص توحيده وإيمانه وإلا فالقلب المنيب إلى الله الخائف منه فيه صارفان يصرفان عن العشق:

أحدهما: إنابته إلى الله ومحبته له فإن ذلك الذ وأطيب من كل شيء فلا تبقى مع محبة الله محبة مخلوق تزاحمه .

والثاني: خوفه من الله فإن الخوف المضاد للعشق يصرفه وكل من أحب شيئا بعشق أو غير عشق فإنه يصرف عن محبته بمحبة ما هو أحب إليه منه إذا كان يزاحمه وينصرف عن محبته بخوف حصول ضرر يكون أبغض إليه من ترك ذاك الحب فإذا كان الله أحب إلى العبد من كل شيء وأخوف عنده من كل شيء لم يحصل معه عشق ولا مزاحمة إلا عند غفلة أو عند ضعف هذا الحب والخوف بترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات فإن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية فكلما فعل العبد الطاعة محبة لله وخوفا منه وترك المعصية حبا له وخوفا منه قوي حبه له وخوفه منه فيزيل ما في القلب من محبة غيره ومخافة غيره .

وهكذا أمراض الأبدان: فإن الصحة تحفظ بالمثل والمرض يدفع بالضد فصحة القلب بالإيمان تحفظ بالمثل وهو ما يورث القلب إيمانا من العلم النافع والعمل الصالح فتلك أغذية له كما في حديث ابن مسعود مرفوعا وموقوفا: «**إن كل أدب يحب أن تؤتى مأدبته وأن مأدبة الله هي القرآن**» والآدب المضيف فهو ضيافة الله لعباده . مثل آخر الليل وأوقات الأذان والإقامة وفي سجوده وفي أدبار الصلوات ويضم إلى ذلك الاستغفار ؛ فإنه من استغفر الله ثم تاب إليه متعه متاعا حسنا إلى أجل مسمى . وليتخذ وردا من " الأذكار " في النهار ووقت النوم وليصبر على ما يعرض له من الموانع والصوارف فإنه لا يلبث أن يؤيده الله بروح منه ويكتب الإيمان في قلبه

وليحرص على إكمال الفرائض من الصلوات الخمس باطنة وظاهرة فإنها عمود الدين

وليكن هجيراه لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها بها تحمل الأثقال وتكابد الأهوال وينال رفيع الأحوال . ولا يسأم من الدعاء والطلب فإن العبد يستجاب له ما لم يعجل فيقول: قد دعوت ودعوت فلم يستجب لي وليعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا ولم ينل أحد شيئا من ختم الخير نبي فمن دونه إلا بالصبر . والحمد لله رب العالمين وله الحمد والمنة على الإسلام والسنة حمدا يكافئ نعمه الظاهرة والباطنة وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين . وسلم تسليما كثيرا[1] .

* * * * *

١ شبكة مشكاة الإسلامى/ ابن تيمة في مرض القلوب وشفائها .

obeikandl.com

المبحث الثاني:

مرض القلب فساد

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله:

مرض القلب هو نوع فساد يحصل له يفسد به تصوره وإرادته فتصوره بالشبهات التي تعرض له حتى لا يرى الحق أو يراه على خلاف ما هو عليه وإرادته بحيث يبغض الحق النافع ويحب الباطل الضار فلهذا يفسر المرض تارة بالشك والريب كما فسر مجاهد وقتادة قوله البقرة في قلوبهم مرض أي شك وارة يفسر بشهوة الزنا كما فسر به قوله في سورة الأحزاب: ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ ولهذا صنف الخرائطي كتاب اعتلال القلوب أي مرضها وأراد به مرضها بالشهوة والمريض يؤذيه مالا يؤذي الصحيح فيضره يسير الحر والبرد والعمل ونحو ذلك من الأمور التي لا يقوى عليها لضعفه بالمرض والمرض في الجملة يضعف المريض بجعل قوته ضعيفة لا تطيق ما يطيقه القوى والصحة تحفظ بالمثل وتزال بالضد والمرض يقوى بمثل سببه ويزول بضده فإذا حصل للمريض مثل سبب مرضه زاد مرضه وزاد ضعف قوته حتى ربما يهلك وإن حصل له ما يقوى القوة ويزيل المرض كان بالعكس.

و مرض القلب ألم يحصل في القلب كالغيظ من عدو استولى عليك فإن ذلك يؤلم القلب قال الله تعالى التوبة ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم فشفاؤهم بزوال ما حصل في قلوبهم من الألم ويقال فلان شفى غيظه وفي القود استشفاء أولياء المقتول ونحو ذلك فهذا شفاء من الغم والغيظ والحزن وكل هذه آلام تحصل في النفس وكذلك الشك والجهل يؤلم القلب قال النبي ﷺ هلا سألوا إذا لم يعلموا فإن شفاء العي السؤال والشاك في الشيء المرتاب فيه يتألم قلبه حتى يحصل له العلم واليقين ويقال للعالم الذي اجاب بما يبين

الحق قد شفاني بالجواب والمرض دون الموت فالقلب يموت بالجهل المطلق

ويمرض بنوع من الجهل فله موت ومرض وحياة وشفاء وحياته وموته ومرضه وشفاؤه أعظم من حياة البدن وموته ومرضه وشفائه فلهذا مرض القلب إذا ورد عليه شبهة أو شهوة قوت مرضه وإن حصلت له حكمة وموعظة كانت من أسباب صلاحه وشفاءه قال تعالى في سورة الحج: ﴿ لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ لأن ذلك أورث شبهة عندهم والقاسية قلوبهم ليبسها فأولئك قلوبهم ضعيفة بالمرض فصار ما ألقى الشيطان فتنة لهم وهؤلاء كانت قلوبهم قاسية عن الايمان فصار فتنة لهم وقال الأحزاب لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة كما قال في سورة المدثر: ﴿ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ لم تمت قلوبهم كموت قلوب الكفار والمنافقين وليست صحيحة صالحة كصالح قلوب المؤمنين بل فيها مرض شبهة وشهوات وكذلك فى الأحزاب: ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ وهو مرض الشهوة فإن القلب الصحيح لو تعرضت له المرأة لم يلتفت إليها بخلاف القلب المريض بالشهوة فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه فإذا خضعن بالقول طمع الذي في قلبه مرض والقرآن شفاء لما في الصدور .

ومن في قلبه أمراض الشبهات والشهوات ففيه من البينات ما يزيل الحق من الباطل فيزيل أمراض الشبهة المفسدة للعلم والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصص التي فيها عبرة ما يوجب صلاح القلب فيرغب القلب فيما ينفعه ويرغب عما يضره فيبقى القلب محبا للرشاد مبغضا للغي بعد أن كان مريدا للغي مبغضا للرشاد فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة حتى يصلح القلب فتصلح إرادته ويعود إلى فطرته التي فطر عليها كما يعود البدن إلى الحال الطبيعي ويغتذي القلب من الايمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده كماي يتغذى البدن بما ينميه ويوقمه فإن زكاة القلب مثل نماء البدن والزكاة في اللغة النماء والزيادة في الصلاح يقال زكا الشيء إذا نما في الصلاح فالقلب يحتاج أن يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح

كما يحتاج البدن أن يربى بالأغذية المصلحة له ولا بد مع ذلك من منع ما يضره فلا ينمو البدن إلا باعطاء ما ينفعه ومنع ما يضره وكذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره وكذلك الزرع لا يزكو إلا بهذا والصدقة لما كانت تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار صار القلب يزكو بها وزكاته معنى زائد على طهارته من الذنب قال الله تعالى في سورة التوبة: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ .

وكذلك ترك الفواحش يزكو به القلب وكذلك ترك المعاصي فإنها بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن ومثل الدغل في الزرع فإذا استفرغ البدن من الأخلاط الرديئة كاستخراج الدم الزائد تخلصت القوة الطبيعية واستراحت فينمو البدن وكذلك القلب إذا تاب من الذنوب كان استفراغا من تخليطاته حيث خلط عملا صالحا وآخر سيئا فإذا تاب من الذنوب تخلصت قوة القلب وإراداته للأعمال الصالحة واستراح القلب من تلك الحوادث الفاسدة التي كانت فيه فزكاة القلب بحيث ينمو ويكمل قال تعالى في سورة النور: ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً ﴾ وقال تعالى في سورة النور: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ وقال في سورة النور: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ وقال تعالى في سورة الأعلى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ وقال تعالى في سورة الشمس: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ من زَكَّاهَا * وقَدْ خَابَ مَن دسَّاهَا ﴾ .

وقال تعالى في سورة عبس: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴾ وقال تعالى في سورة النازعات: ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ فالتزكية وإن كان أصلها النماء والبركة وزيادة الخير فإنما تحصل بإزالة الشر فلهذا صار التزكي يجمع هذا وهذا وقال في سورة فصلت: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ وهي التوحيد والإيمان الذي به يزكو القلب فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب وإثبات إلهية الحق في القلب وهو حقيقة لا إله إلا الله

وهذا أصل ما تزكو به القلوب والتزكية جعل الشيء زكيا إما في ذاته وإما في الاعتقاد والخبر كما يقال عدلته إذا جعلته عدلا في نفسه أو في اعتقاد الناس قال تعالى في سورة النجم: ﴿ فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي تخبروا بزكاتها وهذا غير قوله في سورة الشمس: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ .

ولهذا قال في سورة النجم : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ وكان اسم زينب برة فقيل تزكى نفسها فسماها رسول الله ﷺ زينب وأما قوله في سورة النساء: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ﴾ أي يجعله زاكيا ويخبر بزكاته كما يزكى المزكي الشهود بعدلهم والعدل هو الاعتدال والاعتدال هو صلاح القلب كما أن الظلم فساده ولهذا جميع الذنوب يكون الرجل فيها ظالما لنفسه والظلم خلاف العدل فلم يعدل على نفسه بل ظلمها فصلاح القلب في العدل وفساده في الظلم وإذا ظلم العبد نفسه فهو الظالم وهو المظلوم كذلك إذا عدل فهو العادل والمعدول عليه فمنه العمل وعليه تعود ثمرة العمل من خير وشر قال تعالى البقرة لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت والعمل له أثر في القلب من نفع وضر وصلاح قبل أثره في الخارج فصلاحها عدل لها وفسادها ظلم لها قال تعالى في سورة فصلت: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ وقال تعالى في سورة الإسراء: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ .

قال بعض السلف (إن للحسنة لنورا في القلب وقوة في البدن وضياء في الوجه وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الخلق وإن للسيئة لظلمة في القلب وسوادا في الوجه ووهنا في البدن ونقصا في الرزق وبغضا في قلوب الخلق) وقال تعالى في سورة الطور: ﴿ كُلُّ امْرِئ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ وقال تعالى في سورة المدثر: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ وقال في سورة الأنعام: ﴿ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ﴾ وتبسل أي ترتهن وتحبس وتؤسر كما أن الجسد إذا صح من مرضه قيل قد اعتدل مزاجه والمرض إنما هو انحراف

المزاج مع أن الاعتدال المحض السالم من الأخلاط لا سبيل إليه ولكن الأمثل فالأمثل فهكذا صحة القلب وصلاحه في العدل ومرضه من الزيغ والظلم والانحراف والعدل المحض في كل شيء متعذر علما وعملا ولكن الأمثل فالأمثل ولهذا يقال هذا أمثل ويقال للطريقة السلفية الطريقة المثلى وقال تعالى في سورة النساء: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَأَوْفُوا الكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ والله تعالى بعث الرسل وأنزل الكتب ليقوم الناس بالقسط وأعظم القسط عبادة الله وحده لا شريك له ثم العدل على الناس في حقوقهم ثم العدل على النفس والظلم ثلاثة أنواع والظلم كله من أمراض القلوب والعدل صحتها وصلاحها

قال أحمد بن حنبل لبعض الناس: لو صححت لم تخف أحدا أي خوفك من المخلوق هو من مرض فيك كمرض الشرك والذنوب وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته قال تعالى في سورة الأنعام ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ لذلك ذكر الله حياة القلوب ونورها وموتها وظلمتها في غير موضع كقوله في سورة ياسين ﴿ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ القَوْلُ عَلَى الكَافِرِينَ ﴾ وقوله تعالى في سورة الأنفال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .

وقال تعالى في سورة الروم: ﴿ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ ﴾ ومن أنواعه أن يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن وفي الحديث الصحيح: «**مثل البيت يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه كمثل الحي والميت**» وفي الصحيح أيضا: «**اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبورا**» وقد قال تعالى الأنعام: «**والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات**» وذكر سبحانه آية النور وآية الظلمة فقال في سورة النور: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا

كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ فهذا مثل نور الإيمان في قلوب المؤمنين ثم قال في سورة النور: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ .

فالأول مثل الاعتقادات الفاسدة والأعمال التابعة لها يحسبها صاحبها شيئا ينفعه فإذا جاءها لم يجدها شيئا ينفعه فوفاه الله حسابه على تلك الأعمال والثاني مثل للجهل البسيط وعدم الايمان والعلم فإن صاحبها في ظلمات بعضها فوق بعض لا يبصر شيئا فإن البصر إنما هو بنور الإيمان والعلم قال تعالى الأعراف إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون وقال تعالى يوسف ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه وهو برهان الإيمان الذي حصل في قلبه فصرف الله به ما كان هم به وكتب له حسنة كاملة ولم يكتب عليه خطيئة إذ فعل خيرا ولم يفعل سيئة وقال تعالى فى سورة إبراهيم: ﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ وقال فى سورة البقرة ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ وقال فى سورة الحديد: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ ﴾ .

ولهذا ضرب الله للإيمان مثلين مثلا بالماء الذي به الحياة وما يقتره به من الزبد ومثلا بالنار التي بها النور وما يقترن بما يوقد عليه من الزبد وكذلك ضرب الله للنفاق مثلين قال تعالى فى سورة الرعد: ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ *

لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العظيمِ ﴾ .

وقال تعالى في المنافقين في سورة البقرة: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ * أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فضرب لهم مثلا بالذي أوقد النار كلما أضاءت أطفاها الله والمثل المائي كالماء النازل من السماء وفيه ظلمات ورعد وبرق ولبسط الكلام في هذه الأمثال موضع آخر وإنما المقصود هنا ذكر حياة القلوب وإنارتها وفي الدعاء المأثور اجعل القرآن ربيع قلوبنا ونور صدورنا والربيع هو المطر الذي ينزل من السماء فينبت به النبات قال النبي ﷺ : إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا او يلم والفصل الذي ينزل فيه أول المطر تمسيه العرب الربيع لنزول المطر الذي ينبت الربيع فيه وغيرهم يسمى الربيع الفصل الذي يلي الشتاء فإن منه تخرج الأزهار التي تخلق منها الثمار وتنبت الأوراق على الأشجار والقلب الحي المنور فإنه لما فيه من النور يسمع ويبصر ويعقل والقلب الميت فإنه لا يسمع ولا يبصر قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ فأخبر أنهم لا يفقهون بقلوبهم ولا يسمعون بآذانهم ولا يؤمنون بما رأوه من النار كما أخبر عنهم حيث قالوا فصلت قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فذكروا الموانع على القلوب والسمع والأبصار وأبدانهم حية تسمع الأصواب وترى الأشخاص لكن حياة البدن بدون حياة القلب من جنس حياة البهائم لها سمع وبصر وهي تأكل وتشرب وتنكح ولهذا قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ

يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾ فشبههم بالغنم التي ينعق بها الراعي وهي لا تسمع إلا نداء كما قال في الآية الأخرى في سورة الفرقان: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ فطائفة من المفسرين تقول في هذه الآيات وما أشبهها كقوله في سورة يونس: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾ وأمثالها مما ذكر الله في عيوب الإنسان وذمها فيقول هؤلاء هذه الاية في الكفار والمراد بالإنسان هنا الكافر فيبقى من يسمع ذلك يظن أنه ليس لمن يظهر الإسلام في هذا الذم والوعيد نصيب بل يذهب وهمه إلى من كان مظهرا للشرك من العرب او إلى من يعرفهم من مظهري الكفر كاليهود والنصارى ومشركي الترك والهند ونحو ذلك فلا ينتفع بهذه الآيات التي أنزلها الله ليهتدي بها عباده فيقال أولا المظهرون للإسلام فيهم مؤمن ومنافق والمنافقون كثيرون في كل زمان والمنافقون في الدرك الأسفل من النار ويقال ثانيا الإنسان قد يكون عنده شعبة من نفاق وكفر وإن كان معه إيمان كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا حدث كذب وإذا أوتمن خان وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر**» فأخبر أنه من كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق وقد ثبت في الحديث الصحيح أنه قال لأبي ذر: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**» وأبو ذر رضي الله عنه من أصدق الناس إيمانا وقال في الحديث الصحيح: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية الفخر بالأحساب والطعن في الأنساب والنياحة والاستسقاء بالنجوم**» وقال في الحديث الصحيح: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**» قالوا اليهود والنصارى قال: «**فمن**» .

وقال أيضا في الحديث الصحيح: «**لتأخذن أمتي ما أخذت الأمم قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع**» قالوا فارس والروم قال: «**ومن أناس إلا هؤلاء**» وقال ابن أبي مليكة أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه وعن علي أو حذيفة رضي الله عنهما قال القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب أغلف فذاك قلب الكافر وقلب منكوس فذاك قلب المنافق وقلب فيه مادتان مادة تمده الإيمان ومادة تمده النفاق فأولئك قوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا وإذا عرف هذا علم أن كل عبد ينتفع بما ذكر الله في الايمان من مدح شعب الايمان وذم شعب الكفر وهذا كما يقول بعضهم في قوله اهدنا الصراط المستقيم فيقولون المؤمن قد هدى إلى الصراط المستقيم.

فأي فائدة في طلب الهدى ثم يجيب بعضهم بأن المراد ثبتنا على الهدى كما تقول العرب للنائم نم حتى آتيك أو يقول بعضهم ألزم قلوبنا الهدى فحذف الملزوم ويقول بعضهم زدني هدى وإنما يوردون هذا السؤال لعدم تصورهم الصراط المستقيم الذي يطلب العبد الهداية إليه فإن المراد به العمل بما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه في جميع الأمور والإنسان وإن كان أقر بأن محمدا رسول الله وأن القرآن حق على سبيل الإجمال فأكثر ما يحتاج إليه من العلم بما ينفعه ويضره وما أمر به وما نهى عنه في تفاصيل الأمور وجزئياتها لم يعرفه وما عرفه فكثير منه لم يعمله ولو قدر أنه بلغه كل امر ونهى في القرآن والسنة فالقرآن والسنة إنما تذكر فيهما الأمور العامة الكلية لا يمكن غير ذلك لا يذكر ما يخص به كل عبد ولهذا أمر الإنسان في مثل ذلك بسؤال الهدى إلى الصراط المستقيم والهدى إلى الصراط المستقيم يتناول هذا كله يتناول التعريف بما جاء به الرسول مفصلا ويتناول التعريف بما يدخل في أوامره الكليات ويتناول إلهام العمل بعلمه فإن مجرد العلم بالحق لا يحصل به الاهتداء إن لم يعمل بعلمه ولهذا قال لنبيه بعد صلح الحديبية أول سورة الفتح إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر

ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وقال في حق موسى وهارون الصافات وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم والمسلمون قد تنازعوا فيما شاء الله من الأمور الخبرية والعلمية الاعتقادية والعملية مع أنهم كلهم متفقون على أن محمدا حق والقرآن حق فلو حصل لك منهم الهدى إلى الصراط المستقيم فيما اختلفوا فيه لم يختلفوا ثم الذين علموا ما أمر الله به أكثرهم يعصونه ولا يحتذون حذوه فلو هدوا إلى الصراط المستقيم في تلك الاعمال لفعلوا ما أمروا به وتركوا ما نهوا عنه والذين هداهم الله من هذه الأمة حتى صاروا من أولياء الله المتقين كان من أعظم أسباب ذلك دعاؤهم الله بهذا الدعاء في كل صلاة مع علمهم بحاجتهم وفاقتهم إلى الله دائما في أن يهديهم الصراط المستقيم فبدوام هذا الدعاء والافتقار صاروا من أولياء الله المتقين

قال سهل بن عبد الله التستري ليس بين العبد وبين ربه طريق أقرب إليه من الافتقار وما حصل فيه الهدى في الماضي فهو محتاج إلى حصول الهدى فيه في المستقبل وهذا حقيقة قول من يقول ثبتنا واهدنا لزوم الصراط وقول من قال زدنا هدى يتناول ما تقدم لكن هذا كله هدى منه في المستقبل إلى الصراط المستقيم فإن العمل في المستقبل بالعلم لم يحصل بعد ولا يكون مهتديا حتى يعمل في المستقبل بالعلم وقد لا يحصل العلم في المستقبل بل يزول عن القلب وإن حصل فقد لا يحصل العمل فالناس كلهم متضطرون إلى هذا الدعاء ولهذا فرضه الله عليهم في كل صلاة فليسوا إلى شيء من الدعاء أحوج منهم إليه وإذا حصل الهدى إلى الصراط المستقيم حصل النصر والرزق وسائر ما تطلب النفوس من السعادة .

واعلم أن حياة القلب وحياة غيره ليست مجرد الحس والحركة الإرادية أو مجرد العلم والقدرة كما يظن ذلك طائفة من النظار في علم الله وقدرته كأبي الحسين البصري قالوا إن حياته أنه بحيث يعلم ويقدر بل الحياة صفة قائمة بالموصوف وهي شرط في العلم والارادة والقدرة على الأفعال الاختيارية وهي أيضا مستلزمة لذلك

فكل حي له شعور وإرادة وعمل اختياري بقدرة وكل ماله علم وإرادة وعمل اختياري فهو حي والحياء مشتق من الحياة فإن القلب الحي يكون صاحبه حيا فيه حياء يمنعه عن القبائح فإن حياة القلب هي المانعة من القبائح التي تفسد القلب ولهذا قال النبي ﷺ : «**الحياء من الإيمان**» .

وقال الحياء والعي شعبتان من الإيمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق فإن الحي يدفع ما يؤذيه بخلاف الميت الذي لا حياة فيه فإنه يسمى وقحا والوقاحة الصلابة وهو اليبس المخالف الرطوبة الحياة فإذا كان وقحا يابسا صليب الوجه لم يكن في قلبه حياة توجب حياءه وامتناعه من القبح كالأرض اليابسة لا يؤثر فيه وطء الأقدام بخلاف الأرض الخضر ولهذا كان الحيي يظهر عليه التأثر بالقبح وله إرادة تمنعه عن فعل القبيح بخلاف الوقح والذي ليس بحيي فإنه لا حياء معه ولا إيمان يزجره عن ذلك فالقلب إذا كان حيا فمات الإنسان بفراق روحه بدنه كان موت النفس فراقها للبدن ليست هي في نفسها ميتة بمعنى زوال حياتها عنها ولهذا قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ ﴾ .

وقال تعالى فى سورة آل عمران : ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ ﴾ مع أنهم موتى داخلون في قوله فى سورة آل عمران: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ وفي قوله فى سورة الزمر: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ وقوله فى سورة الحج: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ فالموت المثبت غير الموت المنفي المثبت هو فراق الروح البدن والمنفي زوال الحياة بالجملة عن الروح والبدن وهذا كما أن النوم أخو الموت فيسمى وفاة ويسمى موتا وكانت الحياة موجودة فيهما قال تعالى الزمر الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى وكان النبي ﷺ إذا استيقظ من منامه يقول الحمد الله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور وفي حديث آخر الحمد لله الذي رد علي روحي وعافاني في

جسدي وأذن لي بذكره وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلا وإذا أوى إلى فراشه يقول اللهم أنت خلقت نفسي وأنت توفاها لك مماتها ومحياها إن أمسكتها فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين ويقول باسمك اللهم أموت وأحيا وقال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه أحمد في مسنده الإسلام علانية والإيمان في القلب ولهذا قال النبي ﷺ : «**الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ألا وإن لك ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد وهي القلب**» .

وعن أبي هريرة: (قال القلب ملك والأعضاء جنوده فإذا طاب الملك طابت جنوده وإذا خبث خبثت جنوده)[١] .

الغفلة ومرض القلوب:

من هم الغافلون؟؟؟ كَثِيرٍ مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وما هو مصيرهم؟؟؟ جَهَنَّمَ .

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[٢] .

ما هي صفات الغافلون؟

١- لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا

٢- لَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا

٣- لَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا

---

(١) ابن القيم الجوزية / أمراض القلوب وشفائها بتصرف .

(٢) الأعراف: ١٧٩ .

و لكن!!! هل قلوبنا تفقه؟ هل أعيننا تبصر؟ هل آذاننا تسمع؟

أولا: القلـــب :

ماذا فى القلب؟ أهو حب الله ورسوله ﷺ

أم؟ دنيا وشهوات ، ماذا تشعر فى قلبك اذا فعلت معصية؟

أهو الندم والرغبة فى التوبة وعدم الوقوع فى المعصية؟

أم؟ ران على القلب ما كسبت من السيئات!!!

قال تعالى: ﴿ إِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[1] .

لماذا قال ربنا تبارك وتعالى عن إبراهيم أن قلبه سليم؟؟؟

﴿ اتْـــلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَـــلْ وَجَـــدْنَا آبَاءنَـــا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِـــي وَيَـــسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَـــعُ أَن يَغْفِـــرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ * وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[2] .

إن إبـراهيم لم يعـبد الأصـنام مـثل قومه بل عبد الله الواحد القهار الذى لا إله إلا هو وأمر قومه بعبادته ولكنهم أصروا على عبادة ما لا ينفعهم ولا يضرهم وقالوا: ﴿ بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ .

---

(١) الصافات: ٨٤ .

(٢) الشعراء .

و لكـن إبـراهيم لم يفعـل كأبـاه بـل إن إبـراهيم عندما علم الحق اتبعه ولم يخف شيئا لم يخشى من مجتمعه الذى يعيش فيه!!!

لم يخش من رد فعل والده!!! لم يقل مثلهم: ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُون﴾ .

بـل اتـبع الحـق لأنـه علـم أن مصيره إلى الله ولأنه خاف يوم: ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ .

لقـد علـم أن القلب السليم هو الذى سينفعه يوم القيامة فأنكر ما يدعون من دون الله وعبد الله حق عبادته واعترف بنعم الله عليه واستغفر الله على خطيئته

ثم دعا ربه فاستجاب لـه وأتاه القلب السليم

ثانيا: العيـــن ماذا تبصر عينك؟ أتبصر إعجاز الله فى خلقه؟

أتبصر عظمة الخالق فتخشاه؟ أتبصر نعمته فتحمده؟ وتجدها تدمع من خشية خالقها

أم! تنظر بها الى ما حرم الله إلى أفلام ومسلسلات و . . . . إلى نساء ومحرمات . . .

ثالثا: الأذن ما الذى تسمعه أذنك؟ أهو القرآن والمحاضرات الدينية؟

أم! هو الأغانى واللهو و . . . أم! هو الغيبة والنميمة و . . . .

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾[1] .

المبحث الثالث:

أمراض لا يراها أصحابها

إن من أكبر النعم أن يعيش المرء سليماً في بدنه معافاً في صحته ، وأن يحيا في سلامة من الأمراض التي انتشرت في هذا الزمن .

والإنـسان بطبيعـته لا يحب أن يعلم الناس بمرضه ، ويحاول إخفاء كل علامة تدل على أنه مريض .

ولكـني تأملـت في أحوال بعض الناس ، فعلمت أنهم قد أصيبوا بأمراض ولكن الناس

---

(١) الحاقة: ١٢ .

لا يرونها ، ولا تظهر للطبيب في المستشفيات ، ولا يستطيع الصيدلي أن يصف لك علاجها .

إنها أمراض خفية ، لا تظهر على الوجه ، ولا على الجلد ، ولا تسبب الصداع أو السرطان .

إنها أمراض سكنت في قلوب بعض الرجال والنساء ، واستقرت ، وبدأت تتغلل في الجسد .

لعلك تتسائل وتقول: وما هي هذه الأمراض؟ أريد معرفتها؟ وما هي حقيقتها؟

إن البغضاء والحقد والكراهية جروح في القلب ، وعيوب في نفس المؤمن .

قال زيد بن أسلم: دخلنا على أبي دجانة وهو مريض ، ووجهه يتهلل فقيل له: ما لوجهك يتهلل؟

فقال: مامن عمل أوثق عندي من اثنتين: كنت لا أتكلم فيما لا يعنيني ، وكان قلبي للمسلمين سليما .

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ولاينا ل العلا من طبعه الغضب

فوصيتي إليك طهر قلبك بماء السلامة ، والبس ثياب الحب ، واركب قافلة العفو ، لتصل إلى دار السلام .

ومن أمراض القلوب "البغضاء":

إن البغضاء داء مهلك ، وسرطان القلوب ، وصاحبه يتقلب في أودية الهموم .

لا يعرف للنوم طعماً ، ولا للحياة معنى ، حياته مليئة بالكراهية للآخرين ، فالموت أجمل له من الحياة .

إنه يحمل في قلبه أثقالاً من البغضاء لعباد الله ، فهو يكره الصالحين ويكره من يلتزم بالدين ، ولا يحب رؤيتهم .

ولعله يبغض بعضاً من شعائر الدين ، فهو يبغض الحجاب الشرعي ويتمنى لو أن له

سلطة أن يزيله من الوجود .

ويكره ويبغض بعض العلماء أو الدعاة الصادقين فيا عجبا لـه .

إنه يبغض من يتفوق عليه في الدنيا ، ويكره النعم التي تنزل بغيره ويتحسر على أي خير يناله فلان .

والله إنه يعذب نفسه ولكنه لا يشعر بهذا العذاب .

ومنها مرض الكبر:

إنه مرض ينتشر عندما يغفل الإنسان عن معرفته بنفسه الضعيفة ويرى أنه فوق الناس ، وأنه أفضل منهم .

وقـال الحكمـاء: إن المتكبر كأنه على جبل يرى الناس صغار ، وينسى أنهم أيضاً يرونه صغيراً .

إن هـناك من يتكبر على دينه وشريعة ربه فهو يتكبر على أن يسجد لله أو يؤدي واجباً وجبه الله عليه .

وقد يتكبر على الحقوق فيرفض النصيحة ويستمر على الباطل الذي يهواه فهو كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

لقد نصحه الناصحون ولكنه لا يستجيب استكباراً: ﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ .

- **«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»** [١] .

- **«ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر»** [٢] .

- **«بيـــنما رجـــل يمشي في حلة تعجبه نفسه مرجل جمته، إذا خسف الله به، فهو**

---

(١) رواه البخاري .
(٢) رواه مسلم .

يتجلجل إلى يوم القيامة» [١] .

فيا أيها المتكبر أرفق بنفسك قليلاً

وهذ الشاعر يتعجب ويقول:

عجبت من معجب بصورته ::: وكان بالأمس نطفة مذرة
وفي غدٍ بعد حسن صورته ::: يصير في اللحد جيفة قذرة
وهو على تيهه ونخوته ::: مابين ثوبيه يحمل العذرة

كن متوضعاً لربك وللناس ، وامش على طرقة الحبيب صلى الله علية وسلم الذي كان سيد المتواضعين ، وكن على يقين أن تواضعك هو طريق إلى العزة والرفعة عند الله وعند الناس ، فقد ثبت في الحديث: «**وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**» [٢] .

اعرف قدر نفسك ، فأنت لاشيء لولا فضل الله عليك ، (وكان فضل الله عليك عظيماً) .

ومنها: مرض الحسد:

الذي لا يسلم منه أحد ، كما قيل: ماخلا جسد من حسد .

لقد تعجبت من الحاسد ، لا يفرح لنعمة تنزل عليك ، ولا يحب أن يراك مسروراً ، وأسعد لحظاته عندما تصاب بمصيبة أو تفقد تلك النعمة .

دخل علينا الحسد في مدارسنا ، فهذا طالب يحسد صاحبه لأنه متفوق في دراسته .

ودخل الحسد علينا في وظائفنا ، فهذا الموظف يحسد صديقه لأنه على مرتبة أحسن منه .

ودخل الحسد حتى بين الصالحين والدعاة والعلماء حتى أغرى الشيطان بينهم وأدخلهم في متاهات عظيمة .

عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : «**دب إليكم داء الأمم**

---

(١) رواه البخاري .
(٢) رواه مسلم .

الحسد والبغضاء هي الحالقة، لا تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين» [١] .

ودخل الحسد بين أصحاب الأموال فتحاسدوا وتباغضوا ، ودخل الحسد بين النساء ، فهذه تحسد جارتها لأن زوجها يحبها أو لأنهم يتفوقون عليهم مادياً . .

ولعلها تحسدها لأنها أجمل منها أو أحسن منها في عمل المنزل ، ونحو ذلك .

فعجباً من الحسد وعجباً لأهله!!!

إن الحسد نار في قلب الحاسد ، لا تنطفئ إلا بزوال النعمة عن المحسود ، والحاسد عدو للنعم التي يمنحه الله لمن يشاء من عبادة . .

قالوا: يكفيك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك .

وقيل الحسد جرح لا يبرأ .

ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحسود ، هم لازم ، وقلب هائم .

إني لأرحم حاسدي من حر ما ضمت صدورهم من الأوغاد .

نظروا صنيع الله بي فعيونهم في جنة وقلوبهم في النار .

إن الحسد داء قاتل ، ومرض خبيث ، يفسد العلاقات ، ويوقع العداوات ، إن الحسد آفة موجودة بيننا . . . وللأسف فإننا نرى آثارها وصورها .

والحسد لـــه أسباب فمنها:

١- بغض المحسود والكراهية لـه .

٢- ضعف الإيمان وقلة التقوى لدى الحاسد .

٣- عـدم الرضـا بقـضاء الله وقـدره ، لأن الله هـو الـذي يعطـي مـن يـشاء ويمنع من يشاء: ﴿ **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ .

---

(١) رواه الترمذي وهو حديث حسن .

obeikandl.com

إليك هذه الوسائل التي تدفع شر الحاسد عنك بإذن الله تعالى:

١- تقوى الله ، فمن حفظ الله حفظه الله .

٢- الاستعاذة بالله من شره ، كما قال تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ .

٣- التوكل على الله وعدم الالتفات إلى كيد الحاسد .

٤- الصدق والإحسان إلى الناس ، فإن لذلك تأثير عجيباً في دفع شر الحاسد .

٥- الإحسان إلى الحاسد ومقابلته بالحسنى: ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ .

٦- فرغ قلبك من التفكير فيه ، ولا تبال به .

طهر قلبك وسريرتك من نار الحسد ، وكن راضياً بما قسمه الله لك وكن محباً لغيرك ، تفرح لأخيك عندما تنزل عليه نعمة وتحزن لـه عندما تحل به مصيبة .

إنها القلوب النقية التقية ، قلوب بيضاء ، تحب الخير للجميع ، قلوب سليمة ستنجو يوم القيامة: ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

* * * * *

obeikandl.com

المبحث الرابع:

من نتائج مرض القلوب وموتها

هناك ألفاظ قرية من القسوة أو شبيهة بها تدل على موت القلب - والعياذ بالله - إذا كان صاحبه ممن أهمله حين مرض، ولم يتنبه له ولم يعالجه بذكر الله؛ فأوصله إلى نتائج مرض القلب مثل:

١ - أن يقفل عليها، كما قال تعالى: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوب أَقْفَالُهَا﴾[١] فيقفل على هذه القلوب.

٢ - الران، قال تعالى: ﴿كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُون﴾[٢].

٣ - أو التغليف، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾[٣].

٤ - عدم الفقه، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾[٤].

٥، ٦ - الطبع والزيغ، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[٥].

٧ - العمى، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُور﴾[٦]، وقد ذكر الله تبارك وتعالى الكثير من نتائج موت القلب من مثل هذا، ولو تدبرنا في القرآن حق التدبر لوجدنا الكثير من هذه المواضع، فيما

---

(١) محمد: ٢٤.
(٢) المطففين: ١٤.
(٣) البقرة: ٨٨.
(٤) الأعراف: ١٧٩.
(٥) الصف: ٥.
(٦) الحج: ٤٦.

يتعلق بمرض القلب وموته، وأكثر من ذلك أو مثله فيما يتعلق بأعمال القلوب[١].

٨ - يجب على المؤمن الذي يريد تنقية قلبه، ويحرص على تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينتبه إلى هذه الحقيقة، والأدلة عليها كثيرة جداً، مما ثبت وصح في الوحي، وكثيرة من واقع الناس، وهو المشاهد من أحوال الناس الذين كانوا على ذنوب وفجور ثم تابوا واستقاموا، والذين كانوا على طاعة وخير وعلى طلب علم ودعوة ثم انحرفوا وحاروا، نسأل الله العفو والعافية.

* * * * *

(١) الشيخ الدكتور سفر بن عبدالرحمن الحوالي.

obeikandl.com

المبحث الخامس:

كيف يمرض القلب

١ - القلب يمرض . . ومرض القلب هو أن يخرج عن حد الاعتدال ويدخل في التيه والشتات وعدم الإدراك والمعرفة وعدم التمييز بين الحق والباطل والنور والظلام . . . فيكون في شك وريبة من معرفة ربه كحال المنافقين المذبذبين كما بين الله تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾(البقرة)

فهم في شكهم بعيدين عن معرفة الله تعالى حق معرفة والسعي لمرضاته والشوق للقائه فإذا تتلى آيات الله على هؤلاء فلا يزدادون إيماناً ولكن يزدادون رجساً إلى رجسهم وضلالاً إلى ضلالهم فأما المؤمن عندما يُقرأ عليه القرآن يزداد إيماناً وتصديقاً في قلبه وخشية في قلبه ، وكذلك يستمع إلى آيات الله مستبشرا بها قال تعالى:

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة) .

٢ - ومن الأسباب الرئيسية لمرض القلب شهوة البطن لذلك حذر النبي ﷺ قائلاً: «ما ملأ أدمي وعاءً شراً من بطنٍ حسب الآدمي لقيماتٌ يقمن بها صلبه...» [(١)] .

فشهوة البطن والإفراط فيها قد تجعل الإنسان يجمع ماله من أي باب لا يبالي أمِن حرام جَمَعه أم من حلال حتى يُشبع نفسه وكذلك قد تؤدي إلى حدوث الأمراض الكثيرة كما نرى هذه الأيام من السكر والكولسترول فضلا عن أنها تجعل الجسم يتوقف عن الطاعات وتحجب القلب عن فهم الحكمة والعلوم وأيضاً قد تعمل على تحفيز وتقوية شهوة الفرج .

---

(١) سنن ابن ماجه .

كيف السبيل للوقاية؟

- خير وقاية لنا ألا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع . فلا إفراط ولا تفريط ديننا وسط في كل شيء فجميلٌ حد الاعتدال .
- وكما قال صاحب الإحياء: على المسلم ألا ينسى بلاء الله وعذابه ولا ينسى أهل البلاء فإن الشبعان ينسى الجائع وينسى الجوع والعبد الفطن لا يشاهد بلاء غيره إلا ويتذكر بلاء الآخرة فيذكر من عطشه عطش الخلق في عُرُصاتِ القيامة ، ومن جوعه جوع أهل النار حتى أنهم لَيُجَرَّعون فيُطعَمون الضريع والزقوم ويُسقَون الغسّاء والمهل فلا ينبغي أن يغيب عن العبد عذاب الآخرة وآلامها فإنه هو الذي يهيج الخوف فمن لم يكن في ذلة ولا علة ولا غلة ولا بلاء نسي عذاب الآخرة ولم يتمثل في نفسه ولم يغلب على قلبه فينبغي أن يكون العبد في مقاساة أو مشاهدة بلاء ، وأَوْلى ما يقاسيه من البلاء الجوع ؛ فإن فيه فوائد جمة سوى تذكر عذاب الآخرة وهذه أحد الأسباب التي اقتضت اختصاص الابتلاء للأنبياء والأولياء والأمثل فالأمثل[1] .

ولذلك قيل ليوسف عليه السلام؟ لِمَ تجوع وفي يديك خزائن الأرض؟ فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع . فذكر الجائعين والمحتاجين إحدى فوائد الجوع فإن ذلك يدعو إلى الرحمة والإطعام والشفقة على خلق الله ومن ذلك البعد عن المعاصي والآثام فإن القوم إذا ما شبعت بطونهم جنحت بهم نفوسهم إلى معصية الله .

٣ - شهوة الفرج: كذلك من أسباب أمراض القلوب الهامة:

فإذا خرجت من حد الاعتدال وتصريفها في محلها الشرعي يكون هناك الفساد الكبير الذي نراه اليوم بأعيننا وخير وقاية كما قال تعالى:

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ

(١) إحياء علوم الدين للشيخ الغزالي .

مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(النور) .

قال الآلوسى : قوله - تعالى - ﴿ قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ شروع فى بيان أحكام كلية شاملة للمؤمنين كافة ، يندرج فيها حكم المستأذنين عند دخول البيوت اندراجا أوليا .

وقوله - تعالى - : ﴿ يَغُضُّواْ ﴾ من الغض بمعنى الخفض . يقال : غض الرجل صوته إذا خفضه . وغض بصره إذا خفضه ومنعه من التطلع إلى مالا يحل له النظر إليه . قال الشاعر :

وأغض طرف إن بدت لى جارتى ::: حتى يوارى جارتى مأواها

وهو جواب الأمر " قل " أى : قل - أيها الرسول الكريم - للمؤمنين بأن يغضوا من أبصارهم عما يحرم أو يكره النظر إليه وبأن يحفظوا فروجهم عما لا يحل لهم ، فإن ذلك دليل على كمال الإيمان! وعلى حسن المراقبة وشدة الخوف من الله - تعالى - .

وجمع - سبحانه - بين غض البصر وحفظ الفرج ، باعتبارهما كالسبب والنتيجة ، إذ أن عدم غض البصر كثيرا ما يؤدى إلى الوقوع فى الفواحش ، ولذا قدم - سبحانه - الأمر بغض البصر ، على الأمر بحفظ الفرج .

وجاء التعبير بقوله - سبحانه - ﴿ قُلْ ﴾ للإشعار بأن المؤمنين الصادقين ، من شأنهم إذا ما أمرهم الرسول ﷺ بأمر ، فإنهم سرعان ما يمتثلون ويطيعون ، لأنه ﷺ مبلغ عن الله - تعالى - الذى يجب الامتثال لأمره ونهيه .

وخص - سبحانه - المؤمنين بهذا الأمر ، لأنهم أولى الناس بالمخاطبة . وبالإرشاد إلى ما يرفع درجاتهم ، ويعلى أقدارهم .

قال صاحب الكشاف : و" من " للتبعيض . . . فإن قلت : كيف دخلت فى غض البصر ، دون حفظ الفروج؟ قلت : للدلالة على أن أمر النظر أوسع ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهن . . . والأجنبية ينظر إلى وجهها وكفيها . . . وأما أمر الفرج فمضيق .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ﴿ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ﴾ يعود إلى ما ذكر من الغض والحفظ .

أى : ذلك الذى كلفناك بأمر المؤمنين به -أيها الرسول الكريم - أزكى لقلوبهم ، وأطهر لنفوسهم ، وأنفع لهم فى دنياهم وآخرتهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ تحذير من مخالفة أمره - سبحانه - .

أى : مرهم - أيها الرسول الكريم - بالتزام ما أمرناهم به وما نهيناهم عنه ، لأننا لا يخفى علينا شىء من تصرفاتهم ، ولأننا أعلم بهم من أنفسهم ، وسنحاسبهم على ما يصنعون فى دنياهم ، يوم القيامة .

ثم أرشد - سبحانه - النساء إلى ما أرشد إليه الرجال فقال : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ .

أى : وقل - أيها الرسول الكريم - للمؤمنات - أيضا - بأن الواجب عليهم أن يكففن أبصارهن عن النظر إلى مالا يحل لهن ، وأن يحفظن فروجهن عن كل ما نهى الله - تعالى - عنه ، ولا يظهرن شيئا مما يتزين به ، إلا ما جرت العادة بإظهاره ، كالخاتم فى الإصبع ، والكحل فى العين .

وما يشبه ذلك من الأمور التى لا غنى للمرأة عن إظهارها .

ومع أن النساء يدخلن فى خطاب الرجال على سبيل التغليب ، إلا أن الله - تعالى - خصهن بالخطاب هنا بعد الرجال ، لتأكيد الأمر بغض البصر ، وحفظ الفرج ، ولبيان أنه كما لا يحل للرجل أن ينظر إلى المرأة - إلا فى حدود ما شرعه الله - فإنه لا يحل للمرأة

كذلك أن تنظر إلى الرجل ، لأن علاقتها به ، ومقصده منها كمقصدها منه ، ونظرة أحدهما للآخر - على سبيل الفتنة وسوء القصد - يؤدى إلى مالا تحمد عقباه .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ بيان لكيفية إخفاء بعض مواضع الزينة بعد النهى عن إبدائها .

والخُمُر - بضم الخاء والميم - جمع خمار . وهو ما تغطى به المرأة رأسها وعنقها وصدرها ، والجيوب جمع جيب ، وهو فتحة فى أعلى الثياب يبدو منها بعض صدر المرأة وعنقها .

والمراد به هنا : محله وهو أعلى الصدر ، وأصله : من الجَب بمعنى القطع .

أى : وعلى النساء المؤمنات أن يسترن رءوسهن وأعناقهن وصدورهن بخمرهن ، حتى لا يطلع أحد من الأجانب على شىء من ذلك .

قالوا : وكان النساء فى الجاهلية يسدلن خمرهن من خلف رءوسهن ، فتنكشف نحورهن وأعناقهن وقلائدهن ، فنهى الله - تعالى - المؤمنات عن ذلك .

ولقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث ، منها : ما رواه البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : يرحم الله نساء المهاجرات الأول - لما أنزل الله - تعالى - : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ أخذن أزرهن فشققنها فاختمرن بها .

وفى رواية أنها قالت : إن لنساء قريش لفضلا ، وإنى - والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقا بكتاب الله ، ولا إيمانا بالتنزيل ، لما نزلت هذه الآية . انقلب إليهن رجالهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها ، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته ، وعلى كل ذى قرابة ، فما منهم امرأة إلا قامت إلى مرطها - وهو كساء من صوف - فاعتجرت به تصديقا وإيمانا بما أنزل الله من كتابه ، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ فى صلاة الصبح معتجرات كأن رءوسهن الغربان .

والمقصود بزينتهن فى قوله - تعالى - : ﴿ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ الزينة الخفية وهى ما عدا الوجه والكفين ، كشعر الرأس والذراعين والساقين .

فقد نهى الله - تعالى - النساء المؤمنات عن إبداء مواضع الزينة الخفية لكل أحد ، إلا من استثناهم - سبحانه - بعد ذلك ، وهم اثنا عشر نوعا ، بدأهم بالبعول وهم الأزواج لأنهم هم المقصودون بالزينة ، ولأن كل بدن الزوجة حلال لزوجها .

أى : وعلى النساء المؤمنات أن يلتزمن الاحتشام فى مظهرهن ، ولا يبدين مواضع زينتهن الخفية إلا " لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن " فهؤلاء الأصناف السبعة الذين ذكرهم الله - تعالى - بعد الأزواج ، كلهم من المحارم الذين لا يحل للمرأة الزواج بواحد منهم ، وقد جرت العادة باحتياج النساء إلى مخالطتهم ، كما جرت العادة بأن الفتنة مأمونة بالنسبة لهم ، فمن طبيعة النفوس الكريمة أنها تأنف من التطلع إلى المحارم بالنسبة لها . ويلحق بهؤلاء المحارم الأعمام والأخوال والمحارم من الرضاع . والأصول وإن علوا ، والفروع وإن سفلوا .

وقوله - تعالى - : ﴿ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التابعين غَيْرِ أُوْلِي الإربة مِنَ الرجال أَوِ الطفل الذين لَمْ يَظْهَرُواْ على عَوْرَاتِ النسآء﴾ بيان لبقية الأفراد الذين يجوز للمرأة أن تبدى زينتها الخفية أمامهم .

أى : ويجوز للنساء المؤمنات أن يبدين زينتهن - أيضا - أمام نسائهم المختصات بهن الصحبة والخدمة ، وأما ما ملكت إيمانهن من الإيماء لا من العبيد البالغين ، وأمام الرجال التابعين لهن طلبا للإحسان والانتفاع ، والذين فى الوقت نفسه قد تقدمت بهم السن ، ولا حاجة لهم فى النساء ، ولا يعرفون شيئا من أمورهن ، ولا تحدثهم أنفسهم بفاحشة ، ولا يصفونهن للأجانب .

فقوله - سبحانه - : ﴿ غَيْرِ أُوْلِي الإربة﴾ أى : غير ذوى الحاجة من الرجال فى النساء يقال : أَرِب الرجل إلى الشىء يأرَبُ أربا - من باب تعب إذا احتاج إليه .

ويجوز لهن كذلك إظهار زينتهن أمام الأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء ،

أى: الذين لم يعرفوا ما العورة ، ولم يستطيعوا بعد التمييز بينها وبين غيرها ، ولم يبلغوا السن التى يشتهون فيها النساء .

يقال : ظهر على الشيء إذا اطلع عليه وعرفه ، ويقال : فلان ظهر على فلان إذا قوى عليه وغلبه .

فهؤلاء اثنا عشر نوعا من الناس ، ليس عليهم ولا على المرأة حرج ، فى أن يروا منها موضع الزينة الخفية ، كالرأس والذراعين ، والساقين ، لا نتفاء الفتنة التى من أجلها كان الستر والغطاء . فأما الزوج فله رؤية جميع جسدها .

ثم نهى - سبحانه - النساء عن إبداء حركات تعلن عن زينتهن المستورة ، بل عليهن أن يلتزمن من خلال خروجهن من بيوتهن الأدب والاحتشام والمشى الذى يصاحب الوقار والاتزان ، فقال - تعالى - : ﴿ وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ .

أى : ولا يصح للنساء المؤمنات أن يضربن بأرجلهن فى الأرض ، ليسمعن غيرهن من الرجال أصوات حليهن الداخلية ، بقصد التطلع إليهن ، والميل نحوهن بالمحادثة أو ما يشبهها .

فالمقصود من الجملة الكريمة نهى المرأة المسلمة ، عن استعمال أى حركة أو فعل من شأنه إثارة الشهوة والفتنة كالمشية المتكلفة ، والتعطر الملفت للنظر ، وما إلى ذلك من ألوان التصنع الذى من شأنه تهييج الغرائز الجنسية .

ثم ختم - سبحانه - تلك الآية الجامعة لأنواع من الأدب السامى ، بدعوة المؤمنين إلى التوبة الصادقة . فقال - تعالى - : ﴿ وتوبوا إِلَى الله جَمِيعاً أَيُّهَ المؤمنون لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

أى : وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون والمؤمنات ، توبة صادقة نصوحا تجعلكم تخشونه - سبحانه - فى السر والعلن ، لكى تنالوا الفلاح والنجاح فى دنياكم وأخراكم .

قال القرطبى : " ليس فى القرآن الكريم آية أكثر ضمائر من هذه الآية . جمعت خمسة

وعشرين ضميرا للمؤمنات ما بين مرفوع ومجرور . . . " .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى اشتملت عليها هاتان الآيتان ما يأتى :

١ - وجوب غض البصر وحفظ الفرج ، لأن الإسلام يهدف إلى مجتمع طاهر من الدنس ، نظيف من الخنا ، مجتمع لا تمنع فيه الشهوات الحلال وإنما تمنع منه الشهوات الحرام ، مجتمع لا تختلس فيه العيون النظرات السيئة ولا تتطلع فيه الأبصار إلى مالا يحل لها التطلع إليه ، فالله - تعالى - يقول : ﴿ **إِنَّ السمع والبصر والفؤاد كُلُّ أولئك كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾ ويقول : ﴿ **يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأعين وَمَا تُخْفِي الصدور** ﴾ وقد وردت أحاديث متعددة فى الأمر بغض البصر ، وحفظ الفرج ، ومن ذلك ما أخرجه الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «**كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة، العينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناهما الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطا، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه**» .

وروى الإمام مسلم فى صحيحه عن جرير بن عبد الله قال : سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة - أى البغتة من غير قصد - فقال : «**اصرف بصرك؟**» .

٢ - أنه لا يحل للمرأة أن تبدى زينتها لأجانب ، إلا ما ظهر منها ، لأن الله - تعالى - يقول : ﴿ **وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا** ﴾ .

قال الإمام القرطبى ما ملخصه : " أمر الله - تعالى - النساء بألا يبدين زينتهن للناظرين ، إلا ما استثناه من الناظرين فى باقى الآية ، حذارا من الافتتان ، ثم استثنى ما يظهر من الزينة ، واختلف الناس فى قدر ذلك .

فقال ابن مسعود : ظاهر الزينة هو الثياب . . . وقال سعيد بن جبير والأوزاعى : الوجه والكفان والثياب . . . وقال ابن عباس وقتادة : ظاهر الزينة هو الكحل والسوار والخضاب . . ونحو هذا ، فمباح أن تبديه لكل من ظهر عليها من الناس .

وقال ابن عطية : ويظهر لى بحكم ألفاظ الآية ، بأن المرأة مأمورة بأن لا تبدى ، وأن لا تجتهد فى الإخفاء لكل ما هو زينة ، ووقع الاستثناء فيما يظهر ، بحكم ضرورة حركة فيما لا

بد منه ، أو إصلاح شأن ونحو ذلك ، " فما ظهر " على هذا الوجه مما تؤدى إليه الضرورة فى النساء فهو المعفو عنه .

قلت : أى القرطبى - : وهذا قول حسن ، إلا أنه لما كان الغالب من الوجه والكفين ظهورهما ، عادة وعبادة ، صح أن يكون الاستثناء راجعا إليهما .

يدل على ذلك ما رواه أبو داود عن عائشة ، " أن أسماء بنت أبى بكر ، دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها وقال : «**يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا، وأشار إلى وجهه وكفيه**» .

وقال بعض علمائنا : " إن المرأة إذا كانت جميلة وخيف من وجهها وكفيها الفتنة فعليها ستر ذلك " .

هذا ، وفى هذه المسألة كلام كثير للعلماء فارجع إليه إن شئت .

وإلى هنا ترى السورة الكريمة قد نهت عن الزنا ، ووضعت فى طريقه السدود الوقائية والنفسية . حيث حرمت الاختلاط ، وأمرت بالاستئذان ، وبغض البصر ، وبحفظ الفرج ، وبعدم التبرج ، وبالإكثار من التوبة إلى الله - تعالى - .

و في الحديث عن ابن عباس قال ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العينين النظر وزنا اللسان المنطق والنفس تمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك ويكذبه**»[١] .

فلا يجوز مجالسة النساء (غير المحارم) أو النظر إليهن بشهوة وإنما جاز للنساء محادثة الرجال والنظر إليهم تحت ضوابط شرعية ولأجل عموم الحاجة ، وأما من المصائب الكبرى في هذه الأيام التي انشغل بها شباب وشابات المسلمين عن كلام الرحمن ألا وهي مزامير الشيطان[٢] المحرمة والشعر الهابط الذي لا يتكلم إلا في غزل النساء والمحرمات فهذا من المحرمات .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم .
(٢) الغناء .

كيف السبيل للوقاية؟

- يجب على كل مسلم أن يجتنب هذه المحرمات لأن كل هذا من مقدمات الزنا كما بين الحديث السابق .
- وعلينا بكلام الرحمن الذي هو شفاء للصدور .
- وكذلك أوصي أخواني وأخواتي الشباب بوصية الرسول ﷺ وذلك لمن لا يملك الباءة[١] والزواج قال: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**[٢]»[٣] .

إذاً نخرج بنتيجة:

أن التحكم في شهوتي البطن والفرج توقظ القلب وتجعله يدرك ويميز بين المتضادات (النور والظلام - الهدى والضلال - الحق والباطل . . الخ)

ويسد مسالك الشيطان وطُرُقه وإلا تعرض القلب لأمراض كثيرة وخطيرة واختلطت عليه الأمور فهلك وأهلك .

وسأورد على سبيل المثال لا الحصر بعض أهم أمراض القلوب وكيفية علاجها .

* * * * *

(١) الصداق .
(٢) وقاية وحماية .
(٣) متفق عليه .

obeikandi.com

المبحث السادس:

أمراض القلوب وكيفية علاجها

١ – الحسد:

من أمراض القلوب الخطيرة ومعناه تمني زوال النعمة عن الغير وهذا من خُلق المنافق والكافر قال تعالى:

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة).

وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ (النساء ٥٤).

قال ابن كثير: أي أنهم جحدوا الرسالة ورفضوا تصديقها بغياً وحسداً وجحوداً فالحسد حملهم على الجحود ولننظر هذه الأيام لصناديد الكفر يؤذون المسلمين في كل مكان وانظروا لحسدهم وجحدهم القرآن الكريم فهم لا يستطيعون أن يقابلوه بالحجة ولكنهم أرادوا الانتقام فمزقوه وداسوه لضعفهم وضعف حجتهم والله المستعان، فالعفو الصفح حتى يأتي الله بأمره والله دائما مع المؤمنين، وهذه وصية الله لهذه الأمة ولكن لابد وأن نتمسك بكتاب الله تعالى قولا وعملا.

واعلم أن الحسد لا يجلب في قلب الحاسد إلا الهم والحسرة على ما فاته، وكذلك من مضاره أنه يجلب العداوة في قلوب الناس ليس هذا وفقط بل إن الحاسد يعترض على قضاء الله سبحانه وتعالى على ما آتى الناس من فضله وقد نهانا الرسول ﷺ عن الحسد فقال: «**لا تحاسدوا ولا تدابروا** [١] **ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا**» [٢].

وخطورة الحسد كبيرة جداً ولنا فيها مثالين فلننتبه:

---

(١) التدابر: المعاداة والمقاطعة.

(٢) متفق عليه.

فأول كبيرة: كانت عندما حسد إبليس آدم فكان سببا في تكبره وعصيان ربه وعدم السجود لآدم فظل الحسد في قلبه بتمني زوال النعمة عن آدم وزوجه في الجنة فوسوس لهما قال تعالى: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى ﴾ (طه).

فوسوس له إبليس: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى ﴾.

ولا يزال الحسد يملأ قلب إبليس وجنوده إلى قيام الساعة.

أول جريمة: وقعت في الأرض كانت بسبب الحسد أيضاً.

فقد حسد ابن آدم أخيه؛ قال تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (المائدة).

وللحسد أسباب فما هي أسبابه:

١ – **الكبر**: عندما تنظر للناس من فوق وتظن أنك خلقت من ذهب وهم من حديد وأنك أفضل منهم وترد الحق ولا تعمل به وتحتقر الغير فإن أصاب أحد منهم نعمة كنت حاقداً متكبراً كما جاء في القرآن عن فرعون:

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ * فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ (المؤمنون).

وحسد أبو جهل وغيره من صناديد مكة الرسول ﷺ قالوا يتيم أبي طالب يزعم أنه نبي وقال تعالى عنهم:

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ﴾ (الفرقان).

كما حكى قولهم عن المؤمنين: ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ

عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ (الأنعام) .

٢ – التنازع على مقصود واحد يسبب الحسد:

إذا تبارى اثنان وتنازعا على شيء واحد وفاز به أحدهما تملك الحسد .

قلب المغلوب والقرآن بَيَّن لنا هذا في قصة يوسف مع إخوته:

﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾(يوسف) .

فكانت النتيجة التفكير في قتله بأي وسيلة كانت فكان من أمرهم ما كان .

والحسد وإن تعددت صوره وأشكاله (حسد بين العلماء – طلاب العلم – وبقية أصناف البشر . . .) الأصل فيه هو حب الدنيا ، والله المستعان ، ولكن الأصل في المؤمن أن يطهر قلبه من هذه الآفات والأمراض .

علاج القلب من الحسد:

كيف نعالج الحسد شرعا؟: نص السؤال

يقول النبيﷺ : «**الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**» فتخليص المؤمن نفسه منه مهم حتى يحفظ عليه زاده للدار الآخرة ، وعلاجه فيما يلي: –

١ – الإيمان بالقضاء والقدر: بل تقوية الإيمان بهما فيدرك الإنسان أن الأمور كلها بيد الله عز وجل وهو الذي قدرها وكتبها وشاءها ويعلم بها فلم لا يرضى المؤمن بما قدره ربه .

٢ – التخفيف من التعلق بالدنيا: فالذي جر الحسد للنفوس ما أوتوه من متاع الدنيا الزائل والطمع فيه أما إذا تعلق القلب بالآخرة وزهد في الدنيا زهد فيما عند الناس فعلى أي شيء يحسدهم؟ والنبيﷺ يقول: «**لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها**» .

٣ – تقوية الصلة بين الناس واستشعار الجسد الواحد بين المسلمين فإذا رزق أخوك المؤمن بنعمة فلك منها نصيب بل ينبغي أن تفرح بعلو أخيك ورفعته وما آتاه الله تعالى من

فضله: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ .

٤ - الارتباط بالآخرة وإنها مجال التنافس على العمل وفيها تنبغي الغبطة لا الحسد على الدنيا كما ذكر آنفاً: ﴿ لا حَسَدَ إِلا عَلَى اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَقَامَ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَرَجُلٌ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالا فَهُوَ يَتَصَدَّقُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ .

٥ - التعلق بالله عز وجل واكتساب التقوى فإن الإيمان يعصم القلب من الوقوع فيما .

٧ - استشعار أن سلامة الصدر للمؤمن طريق عظيم للجنة فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فقال: «**يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه، وقد تعلق بعلقة بيده الشمال، فلما كان الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك، فطلع الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضاً، فطلع الرجل على مثل حالته الأولى**» ، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو ، فقال: إني لاحيت أبي فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثاً ، فإن رأيت أن تؤويني عليك حتى تمضي ، فعلت ، قال: نعم .

قال أنس: فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث فلم يره يقوم من الليل شيئاً ، غير أنه إذا تعار وتقلب في فراشه ذكر الله - عز وجل - وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر . قال عبد الله: غير أنني لم أسمعه يقول إلا خيراً ، فلما مضت الثلاث ليالي ، وكدت أن احتقر عمله ، قلت: يا عبد الله ، لم يكن بيني وبين أبي غضب ، ولا هجرة ، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول لنا ثلاث مرات يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فطلعت أنت الثلاث ليالي ، فأردت أن آوي إليك فأنظر: ما عملك ، فاقتدي بك فلم أرك عملت كبير عمل ، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ ؟ قال: ما هو إلا ما رأيت ، قال: فلما وليت دعاني ، فقال: ما هو إلا ما رأيت . غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه ، فقال عبد الله: هذه التي بلغت بك ، وهي التي لا نطيق .

- الأصل في المؤمن: طهارة القلب وعدم البغضاء والكراهية .

openkandil.com

- ولابد أن تعلم أنه لا ينالك من جَرَّاء حسدك للغير إلا الهم والحزن الحسرة على ما فاتك كما قال الشاعر:

اصبر على صبر الحسود فإن صبرك قاتله ::: فالـــنار تأكـــل بعضها إن لم تجد ما تأكله

- واعلم أنك لن تمنع قضاء الله فلا تحسد أحد على النعمة التي حباه الله بها لأن هذا يخرج عن أمر استطاعتك أن تزيلها منه قال تعالى: ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾(فاطر) .

- ولابد للحاسد أن يعلم أن الحسد معصية فعليه أن يقتل وينزع جذور الحسد من قلبه والأهم لكل مسلم ومسلمة العلم بأن حب المسلم للمسلم يجعله يشارك في الخير أخاه وبهذا تتآلف القلوب بكثرة الإحسان والدعاء بالبركة لمن طرأ عليه النعمة وقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله وعليك أن تترك الألفاظ التي يقولونها بألسنتهم عفوياً عندما يَرَون على أخيهم نعمة يقولوا: (يخرب بيته من أين له بهذا الشيء)!؟ .

وكما قال الشافعي: إذا تصدق عليك أحد فقل: آجرك الله على ما أعطيت وبارك لك فيما أبقيت .

٢- الـــريـــاء:

المرض الثاني من أمراض القلوب:

معناه: طلب المنزلة في قلوب الناس بأي وجه من الوجوه وخصوصاً في العبادة وهذه الكلمة مشتقة من كلمة "رؤية": تحب أن يراك الناس ويشيرون إليك ببنانهم ، والرياء: هو الشرك الخفي الذي قد ذمَّه الله تعالى قال: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ المَاعُونَ﴾ (الماعون) .

وقال أيضاً: ﴿ إِنَّ المُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(النساء) .

obeikandl.com

وصفة الرياء تكون في المنافقين فلا إخلاص عندهم ولا معاملة مع الله بل يُشهِدون الناس تقية لهم ومصانعة ولهذا فهم دائما متخلفون (متأخرون) وخصوصا عن صلاة العُتَمَة وهي أثقل الصلاة على المنافقين كما بين الرسول ﷺ .

عن جندب رضى الله عنه قال: قال ﷺ : «**ومن يراءِ يراءِ الله به ومن يُسَمِّع[1] يُسَمِّع الله به**» [2] .

انظر عندما رأى عمر رضى الله عنه رجلاً في الصلاة يطأطئ رقبته فقال: يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلب .

احذروا الرياء:

أول ما تسعر به النار من الموحدين العّباد المراءون بأعمالهم ، وأولهم العالم والمجاهد والمتصدق للرياء ؛ لأن يسير الرياء شرك ، ما ينظر المرائي إلى الخلق في عمله إلا لجهله بعظمة الخالق ، المرائي يزوِّر التواقيع على اسم الملك ؛ ليأخذ البراطيل لنفسه ، ويوهم الخلق أنه من خاصة الملك .

هذه أمثال - يعني - تضرب للمرائي ، أولا إن المرائي إنما أوتي من جهله بربه ، من عرف ربه وأنه المستحق لأن يُعلى ويُعبد ، ويتقرب إليه بأنواع القرابين - لا يبالي بالخلق ولا يعبأ بهم ، فعمله الظاهر وفي الغيب والشهادة واحد ، لا يبالي بالناس إنما يعمل لربه ، ويتقرب إلى ربه ، فإنما أوتي بجهل لعظمة الخالق .

والمرائي يظهر الصلاح ، وهذا هو الذي ضَرب له مثلين ؛ لأنه يزور التواقيع ، ويظهر أنه من خواص الملك ، وينقش اسم الملك على الدرهم الزائف ، كل هذه أمثال بحال المرائي من جهة أنه يظهر الصلاح والقرب من الله وهو بخلاف ذلك ، وكل - يعني - عمل المرائي تزوير ، فليس باطنه كظاهره . نعم .

نقش المرائي على الدرهم الزائف اسم الملك ليروج ، والبهرج ما يجوز إلا على غير

---

(١) يعمل طلباً للسمعة .
(٢) متفق عليه .

الناقد ، وبعد أهل الرياء يدخل النار أصحاب الشهوات وعبيد الهوى ، الذين أطاعوا هواهم وعصوا مولاهم ، فأما عبيد الله فيقال لهم: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ .

وعاقِبة الرياء الخوض إلى جهنم سحباً على الوجوه ففي الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ : «**إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأُتي به فعَرَّفه نعَمَه فعرفها قال فما عملت فيها قال قاتلت فيك حتى استشهدت قال كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل ثم أُمر به فسُحِبَ على وجهه حتى ألقي في النار....**» (١) .

هذا حديث يدلنا على أصل عظيم: أن الأعمال لابد أن تكون جميعها لله بدون أي شريك ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾(الأنعام) .

فالمقاتل والمنفق والعالم أو القارئ لكتاب الله – وهذه من أعظم وأجل الأعمال كما بَيَّن الحديث – إن لم يكن عمله لله خالصاً فلا ينتظر سوى العذاب الأليم ، قال تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ ﴾(البينة) .

والرياء: صفة من صفات الكفار والمنافقين فقد قال تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ (المنافقون) .

وقال تعالى: وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (آل عمران) .

ومن أنواع الرياء أيضا أن يرائي في العبادة كإطالة الركوع والسجود في الصلاة أو في المظهر كإطالة اللحية والإمساك بالمسبحة أو تقصير الثوب أو التشدق ببعض آيات القرآن أو مصاحبة أهل العلم والصلاح والله أعلم بالنوايا ، كحال هذا الشاب الذي كان يصلي في

---

(١) صحيح مسلم .

المسجد وكان يطيل في صلاته فرآه رجلان في المسجد فأخذا يتكلمان عن حسن صلاته وسَمْته وهيئته في الصلاة وهو يطيل ويطيل حتى إذا انتهى من الصلاة قالوا له: ما أعجب صلاتك وما أحسنها، فقال لهم: (وأني صائم أيضاً اليوم) . . .!! فالله المستعان .

أو أن يرائي بالطاعة للحصول إلى أمور نفعية مثلاً بالنصب على الناس بإسم الدين كإطالة اللحية أو إظهار الخشوع في الكلام أو الاستشهاد ببعض الأحاديث أو الآيات من القرآن .

انتبه: قد يظن القارئ أني متخذ موقفاً من إطالة اللحية مع أنها واجبة في الإسلام ولكن الذي أقصده - حتى يُفهم كلامي فهماً صحيحاً - هو الذي يتخذ شعائر الدين باباً للرياء أو لجلب المصالح مع عدم الإخلاص لله تعالى في طاعته فهذا الصنف من الناس يتعامل معه الآخرون بحسن النية وحسن القصد على أنه رجل متدين ولكنه غاشاً لهم فهؤلاء من المرائين ويكون حسابهم عن الله أليم فالرياء محبط للأعمال ولو كانت مثل الجبال .

كيفية العلاج من الرياء:

- لابد أن يراقب المسلم نفسه حق المراقبة فمدح الناس أو ذمهم لا يفيد ولا يضر طالما أن العمل خالصاً لوجه الله تعالى .
- أخلِص العمل فإن الناقد بصير واجعل همك الوحيد هو رضا الله عنك .
- واعلم أخي وحبيبي أن رضا الناس غاية لا تدرك فأرح قلبك واجعل همك هماً واحداً هو رضاء الله تعالى عنك .
- وإن مدحك أحد فقل كما قال سيد المتواضعين أبو بكر الصديق رضى الله عنه: اللهم اجعلني خيرا مما يظنون واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون . . . اللهم آمين .
- وأن تدعو وتقول في أعمالك لتجديد النية وتصحيحها: «**اللهم إني أعوذ بك أن**

أشرك بك شيئاً أعلمه وأستغفرك لما لا أعلمه» .

٣ – الغـــضـــب :

المرض الثالث من أمراض القلوب:

جند من جنود الشيطان في القلب وهو يعني: غليان الدم في القلب فيرتفع الدم في أعالي الجسم فيحمر الوجه وتحمر العينان وتنتفخ الأوداج وعلى المؤمن ألا يفرط في الغضب لأنه إذا فعل يخرج عن حد الاعتدال فتخرج أفعاله عن نطاق الترتيب والانتظام كما تخرج أقواله عن حدود الأدب واللياقة وما رسمه الإسلام من حدود للكلام والحديث ؛ فينطلق اللسان بالسب والشتم واللعن وتندفع الجوارح للضرب والتمزيق والتكسير وقد يؤدي في النهاية للقتل وقد يهرب المغضوب عليه فينقلب السحر على الساحر فيمزق الغاضب ثوبه ويلطم وجهه أو يكسر شيئاً أمامه وعندها يمتلئ القلب حقداً وغلاً وإضماراً بالسوء والله المستعان والغلبة يومئذ تكون للشيطان .

قال تعالى ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران) .

إن الجنة التي أعدها الله تعالى قد أعدها لمن اتقاه ، وأنفق من مال الله الذي أعطاه ، وكذلك الذي يتجرع غيظه عند امتلاء نفسه منه ؛ يقال كظم فلان غيظه إذا تجرعه فحفظ نفسه من أن تُمضي ما هي قادرة على إمضائه باستمكانها ممن غاظها وانتصارها ممن ظلمها . وفلان كظيم ومكظوم إذا كان ممتلئاً هماً وحزناً ومنه قوله تعالى: ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ يعني: ممتلئ حزناً[1] .

وقوله تعالى: ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(التوبة) .

والمعنى أن الله يذهب غيظ قلوب المؤمنين وهمهم وحزنهم وحنقهم ويشفي صدورهم بقتال من حارب الله ورسوله وهذا من محبة الله للمؤمنين حيث جعل من جملة المقاصد

---

(١) تفسير الطبري بتصرف .

الشرعية شفاء ما في صدورهم وذهاب غيظهم [١] .

وقوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾(فصلت) .

فإذا ألقى الشيطان في قلبك ونفسك وسوسة لحملك على مجازاة المسيء والرد عليه فاستجر بالله واعتصم به فهو السميع باستعاذتك به والعليم بأمور خلقه جميعا [٢] .

فهذا النوع من الغضب الغير مرغوب فيه إذا كان لدوافع شخصيه وأما إذا كان غضب المسلم المؤمن بربه لحد من حدود الله انتهك فهو المطلوب قال ﷺ : «**أتعجبون من غيرة سعد لأنا أغْيَر منه والله أغْيَرُ مِنِّي**» [٣] .

فلابد للمؤمن ألا ينعدم شعوره للغضب لتغيير المنكر والفساد في الأرض إذ الغضب مباح وواجب ولكن في حدود معينة .

أما أن يخلو المؤمن من المروءة ويكون خسيساً يرضى بالفحشاء والمنكر والذل ولا يثور ويترك اللئام يجترئون عليه فهو كما قال الشافعي: من استُغضِب فلم يغضب فهو حمار ومن استُرضِي ولم يرضى فهو شيطان!!!

كيف أعالج نفسي من الغضب؟

- بسهولة إذا تذكر الإنسان قبره وتذكر يوم البعث والحساب وتذكر الجنة والنار وتذكر الآخرة التي ذكرها الله في القرآن ١٥٠ مرة وتذكر أمرها وأهوالها وما فيها هان عليه كل شيء .
- ولابد أن يعلم ويوقن أن الأمور كلها بيد الله تعالى وأن يرضى باختيار الله تعالى له من خير أو شر فالمؤمن مأجور لأن أمره كله له خير .
- وعلينا الاقتداء كذلك بالصالحين من قبلنا وبصحابة رسول الله ﷺ فقد شتم رجل

---

(١) تفسير السعدي .
(٢) تفسير السعدي .
(٣) صحيح البخاري (٦٣٤٠) كتاب الحدود .

obeikandi.com

سلمان الفارسي فرد عليه قائلاً: إن خفت موازيني فأنا شر مما تقول وإن ثقلت موازيني لم يضرني ما تقول .

- ورد أحد الصالحين على من شتمه قائلاً إن كنت صادقا فغفر الله لي وإن كنت كاذبا فغفر الله لك .
- وعلى المؤمن العاقل أن يتذكر عاقبة الغضب التي تورث العداوة والبغضاء والصراع بين الناس وكذلك أن يتذكر قدرة الله تعالى عليه .
- وأن نتذكر وصية الحبيب ﷺ حينما سأله رجل أوصني يا رسول الله فأجاب ﷺ : «**لا تغضب لا تغضب فردد مراراً لا تغضب**»[١] .
- وأيضا قال الرسول ﷺ حينما سأل أصحابه عن معنى الصُّرَعَة[٢] فلما جاوبه بمعناها قال ﷺ: «**إنما الصُّرَعَة الذي يملك نفسه عند الغضب**»[٣] .
- وعليك بالعفو عن الناس فما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً .
- وعليك بالرفق فإذا حُرِمت الرفق حرمت الخير كله ؛ فالرفق ما كان في أمر إلا زانه وما نزع من شيء إلا شانه .
- وإذا غضبت قاوم الشيطان وغير الحالة التي أنت عليها إذا كنت قائم فاجلس أو اتكئ أو اضطجع وإن لم يذهب الغضب عنك واستولى على قلبك توضأ أو اغتسل .
- واعلم يا أخي وحبيبي أن الناس في الغضب أربعة نفر ؛ فانظر في نفسك وفكر أي نوع من هؤلاء أنت؟

١ - بطيء الغضب بطيء الرضا: فهذه بتلك .

---

(١) صحيح البخاري .
(٢) الذي يصرع الناس ويغلبهم .
(٣) صحيح البخاري .

٢ - سريع الغضب سريع الرضا: فهذه بتلك.

٣ - سريع الغضب بطيء الرضا: وهذا أشر الناس.

٤ - بطيء الغضب سريع الرضا: وهذا خير الناس.

وعلينا أن نتذكر دائما وأبدا قول الله سبحانه وتعالى في سورة النور ونملأ قلوبنا نوراً ورحمة وحلماً على العباد: ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

فنرد ونقول: بلى يارب نسألك المغفرة، نسألك الصفح، نسألك العفو.

٤ - الحقد:

المرض الرابع من أمراض القلب:

إذا زاد مرض القلب في قلب الإنسان وتملك هذا الغضب مملكة القلب يصبح الإنسان حقوداً بسبب كثرة الخصوم والحقد حقيقة ينبع من ارتداد الدم مرة أخرى بعد فورانه للقلب فيكمد فيه الهم والحزن ويعرض صاحبه للأمراض الكثيرة فيكون دائما مشدود الأعصاب ناقماً على كل شيء حوله فلا هو أراح ولا استراح وتعتريه الأمراض العضوية كالضغط والذبحة الصدرية والسكر وضيق الشرايين وقد تأتيه جلطه فيموت فضلاً عن ضعف الإيمان في القلب لاشتغاله بهذه الأمراض.

أخي وحبيبي إذا كانت خصومتك مع أحد المسلمين فقد وقعت في المحظور والمحرم فعن أبي أيوب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث**...»[(١)]. وإذا كانت خصومتك وقطيعتك مع أولي الأرحام كانت المصيبة والخطورة أشد عليك من الأولى فقد تكون ممن لا يدخلون الجنة وقد تحرم من رحمة الله تعالى فعن جبير ابن مطعم رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل الجنة قاطع رحم**»[(٢)].

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

من الآثار السيئة التي يقع فيها الحقود أنه يتكلم في حق المحقود عليه بما لا يحل كالغيبة والنميمة والكذب والافتراءات وغيرها وبهذا يقع الحاقد فيما لا تحمد عقباه وكل هذه الأشياء من أمراض القلوب والله المعافي .

كيف أعالج نفسي من الغضب؟:

- طهارة القلب من الأمراض المهمة في حياة المسلم ، كيف لا والرسول ﷺ قال الطهور نصف الإيمان فبالإيمان والإحسان للآخرين وتصرف صديقين المؤمنين ندفع السيئة بالحسنة ، قال تعالى:

﴿ وَلاَ تَسْتَوِي الحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (فصلت) .

فهذا هو عمل الصالحين ولكن إذا منعت الإحسان عن الناس فلابد ألا تسيء إلى أحد منهم على الأقل .

- ولا تُشغِل قلبك بالأحقاد والوساوس فتلهيك عن ذكر الله .
- وفوض الأمر لله تعالى وسَلْهُ العون والثبات والأجر في الآخرة على صبرك الجميل .

٥ – البخل وحب المال:

البخل: هو منع الواجب ؛ أي الامتناع عن إنفاق المال فيما يجب .

والبخيل عندما يضع يده في جيبه لينفق في أي وجه من وجوه الخير ساءته عطيته وهذا البخيل يتضرر ويظن أنه سيموت جوعاً إذا أنفق ، قال تعالى:

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(البقرة) .

ولابد لإخواني أن يعلموا أن المال كالحية لا تؤذي الصائد الماهر والمتخصص ولا تضره . . بل يستطيع أن يستخرج منها الترياق . . أما من لا يعرف كيف يتعامل معها لسعته

فمات بسمها وكذلك المال لـه وجهان وجه في الخير ووجه في الشر فيه النفع والضر .

واعلم أخي وحبيبي أن الناس في حب المال صنفان .

الأول: صنف يحب المال باعتباره وسيلة .

والثاني: صنف يحب المال باعتباره غاية .

أما **الصنف الأول**: فاتَّخَذه وسيلة للملذات والشهوات مع ترك الواجبات مع ظنه أنه لـن يموت أبداً فيكنزه ، وإذا علم يقيناً أنه سيموت لا يبخل بالإنفاق أبداً أو أنه يقول: حتى أؤمـن أولادي فـلا ينفق فيعتقد بظنه الخاطئ أنه بذلك أمَّن مستقبلهم ، وكذلك عندما يكنز المـال ويعـدده يظـن أنه في مأمن فيثق بما في يده أكثر من ثقته بما في يد الله لـه وهذا الصنف كثرة وحدث ولا حرج ، والله المستعان .

أمـــا **الصنف الثاني**: الـذي اتخذ المال غاية يُجَمِّع ويَكنِز ويعد ويحصي فيحرص على المـال ويـسعد بجمعـه حتى أنه قد يبخل على نفسه فلا ينفق في ضرورياته كالغذاء والدواء ، قال تعالى: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ (الهمزة) .

فهـذا الـصنف مكـروه من الناس وخصوصا من أقرب الناس إليه الذين ينتظرون موته العاجـل حتـى يـرثوه وذلـك بسبب بخله وشحه فهو عدو لنفسه وجاهل بأمره فكيف يجمع مـالاً ويعـدده ويحرم نفسه ليستفيد غيره مما حَرَّم على نفسه في حياته وهم كُثُر وهذا الصنف أشد خطراً من الأول ، والله المستعان .

الناس طرائق في إنفاق المال:

أما الناس في هذا المرض الفتَّاك الذي يفتك بالقلب لهم طرق شتى في إنفاق المال:

الـــصنف الأول: يـبذر وينفقه في غير موضعه قال تعالى عنهم: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾(الإسراء) .

الـــصنف الـــثاني: صـنف بخـيل (ميت علـى الدنـيا كمـا يقولـون) قـال الله تعـالى فـيهم: ﴿الَّـــذِينَ يَـــبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ

وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً ﴾ (النساء) .

فحد الاعتدال والوسطية جميل في كل شيء وخصوصاً في النفقات أنه على المسلم أن تكون نفقته عدل قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً ﴾(الإسراء) .

وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾(الفرقان) .

واعلم أن الرسول ﷺ حذر ونهى عن البخل فعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**خصلتان لا تجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق**»[١] .

فالبخل يقدح في الإيمان فعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث مهلكات شح مطاع وهوىً متبع وإعجاب المرء بنفسه...**»[٢] .

وعن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « ... **واتقوا الشح فإنه أهلَكَ من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم**»[٣] .

سبحان الله انظرا أخي وأختي في الله إلى عاقبة البخل وحب المال فهما من المهلكات في هذه الأمة اليوم ، التي أحبت الدنيا وعملت وجمعت لها وكرهت لقاء الله إلا من رَحِمَ ربي منهم فهذا هو الهلاك بعينه استخدمتهم الدنيا فانتقلوا من عز الإسلام إلى الذل والهوان ولتعلموا أن المؤمن كريم النفس ، قريب من الله ، قريب من الناس ، قريب من الجنة وبعيد عن النار ، والبخيل خبيث النفس ، بعيد عن الله ، عن الناس ، عن الجنة وقريب جداً من النار ؛ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون .

كيف أعالج نفسي من مرض البخل؟

- علينا دائما بدعاء النبي ﷺ سائلين الله أن يعافينا من هذا المرض القلبي العضال: «**اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد إلى**

---

(١) رواه الترمذي وضعَّفه الألباني .
(٢) رواه البزار والبيهقي في الشعب .
(٣) رواه مسلم .

أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا يعني فتنة الدجال وأعوذ بك من عذاب القبر» (١).

- وعلينا أن نتذكر قول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ (محمد).

- ومن المهم لعلاج هذا المرض القلبي العضال أن يتذكر البخيل أنه سيموت والموت نهاية حتمية لكل حي ونحن لا نضمن أعمارنا فقد تنتهي فجأة وبدون أي إنذار، والحياة مجرد أنفاس معدودة في أماكن محدودة فاللهم اختم لنا بخاتمة الحسنى آمين.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾(المنافقون).

- وكذلك إذا كنا نظن أن في جمع المال تأمين لحياة أولادنا بعد الموت فعلينا بالتأمين الرباني بنص القرآن حتى نضمن لأولادنا حياة سعيدة قال تعالى:

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾(النساء).

- واعلم أنه: «**ما نقص مال من صدقة**» (٢).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾(سبأ).

- ولنعلم جميعا أنه إذا كنا نحب المال لعدم الثقة بما سوف يأتينا في المستقبل فعلينا أن نتذكر أننا ولدنا عراة فكسانا الله وضعفاء فقوانا الله وجوعى فأطعمنا الله وسقانا وإذا كنا نحب المال من أجل المال كما فعل بعض الإخوان في بلاد الغربة، فقد جمعوا وعددوا المال وسجدوا للدولارات من دون الله وما حضروا صلاة الجماعة

---

(١) رواه البخاري من حديث سعد.
(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة.

فضاعوا وأضاعوا أولادهم فهؤلاء مهما جمعوا فلن يشبعوا فليعودوا وليتوبوا إلى ربهم، وكفى ثم كفى ثم كفى.

- ولنعلم جميعا أن ما عند الله خير لنا من ذلك وذاك قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾(يونس).

وفي حديث بن عباس وأنس رضى الله عنه قالا: قال ﷺ: «**لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى لهما ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب**»[1].

- فالتوبة يا إخواني والعودة إلى ما عند الله فالدنيا ساعات معدودة وظل زائل ولنتذكر أننا سنموت وسنرجع إلى التراب ونتذكر هذا اليوم الذي سنقف فيه أمام الله: ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾.

٦ – الكبر:

أشد وأخطر أمراض القلب:

معناه أن تشعر أن منزلتك أعلى من غيرك وأنك فوق الناس بظنك الخاطيء أنك أفضل منهم ومتميزاً عنهم وتعتقد ذلك بقلبك وتستريح له نفسك فتظهر آثار هذا المرض على الجوارح فتختال وتصعر خدك للناس وتتطاول عليهم بلسانك إما لكثرة علمك أو نسبك أو عبادتك أو لمالك . . . إلخ.

والمتكبر مهدد بسوء نهايته ومصيره قال تعالى: ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾(الزمر).

وقال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ (الأعراف).

ولنعلم أن للكبر درجات تتفاوت حسب تَمَكُّن هذا المرض من القلب.

---

(١) متفق عليه.

١ - يكون الكبر في الإنسان ولا يدريه إلا الله: بحيث لا يظهر على الجوارح لعوام الناس قال تعالى: ﴿ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ﴾ (غافر).

وقال صلى ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر**»[1].

٢ - الكبر يظهر على جوارح الإنسان فيراه الناس ويشعروا بتكبره يختال ويمشي في الأرض مرحاً قال تعالى:

﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (لقمان).

وقال أيضاً: ﴿ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولاً ﴾ (الإسراء).

واعلم رحمك الله أن الكبر تتعدد صوره وأشكاله فمثلاً:

١ - **المتكبر على الله خالقه:** وهذا النوع من أفحش أنواع الكبر وقد قص القرآن علينا أخبار هؤلاء الطغاة الذين تكبروا على خالقهم كفرعون وهامان وقارون والنمروذ وما شابههم وهذا الصنف من الناس يستنكف أن يكون عبداً لله قال الله تعالى عن فرعون: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا المَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ (القصص).

وقال أيضاً: ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ (النازعات).

فظن المعتوه أنه الإله وأنه المستحق للعبادة من دون الله والله المعافي.

و النمروذ قال الله تعالى عنه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ المُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ المَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة).

---

(١) رواه مسلم عن ابن مسعود.

٢ – **التكبر على الرسل**: والأمثلة كثيرة في القرآن تتكلم عن المرضى بهذا الداء قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾(الزخرف) .

وقال عنهم: ﴿ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ﴾(يس) .

فهؤلاء وأمثالهم لم يستكبروا على الله ولم ينكروا وجوده بل استكبروا على رسل الله فأصمهم الله وأعمى أبصارهم فما كانوا من المهتدين وهم في الحقيقة قسم يمتنع ويتكبر أن يستمع من البداية مثلا:

قال تعالى عنهم: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا القُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾(فصلت) .

وقال تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً ﴾(نوح) .

٣ – **الذين يستمعون القرآن ولكنهم لا يتبعونه استكبارا**: قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ (النمل: ١٤) .

وقال أيضاً عز من قائل: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾(البقرة) .

فالمتكبر بغيض لا يحبه الله وعقاباً لهذا الصنف قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ ﴾(الأعراف) .

فكان العقاب أنهم ممكن يقرأون آيات الله ولكن لا يفهمونها ولا يعملون بها فصرف الله قلوبهم عنها بسبب تكبرهم .

٤ – **من يتكبر على الناس**: فعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال ﷺ : «**بحسب امريء من الشر أن يحقر أخاه المسلم**» [١] .

---

(١) رواه مسلم .

لقد حرموا أخلاق المؤمنين كالتواضع والعفو وبسط الوجه وكظم الغيظ وعدم الغضب إلا لحرمات الله واعتلت الأمراض قلوبهم.

ومن تكبرهم وعَبَطهم يريدون أن ينازعوا الله حقه ويشاركوه سلطانه.

ففي الحديث القدسي: قال الله تعالى: «**الكبرياء ردائي والعظمة إزاري من نازعني فيهما قصمته**»[١].

٥ - **المتكبر بعلمه**: فهذا الصنف ممن عَلِم قشور العلم يُعَنِّف الناس إذا تحدث معهم ظانّاً انه أفضل منهم وهو دونهم فنقول لهذا الصنف من المسلمين هذب نفسك وزكي قلبك قبل أن تحفظ العلم فهذا العلم نزل من السماء صافياً على القلوب؛ فتحويه القلوب وتفهمه على قدر نقائها وسلامتها أو مرضها وخبثها فيزداد الحلو حلاوة ويزداد المر مرارة كالأرض الطيبة والأرض الخبيثة عندما ينزل عليها المطر.

ومثال ذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة).

والنبي ﷺ صاحب الخلق العظيم أوصاه الله تعالى بالتواضع للمؤمنين فقال: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الحجر).

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

فعلى العلماء وطلاب العلم أن يتواضعوا للناس ولا يجعلون فجوة بينهم وبين المتعلمين وليعلموا جميعاً أن المانح هو نفسه المانع فالله المانح لعلمهم قد يأخذه ويمنعهم عنه وعليهم ألا يغفلوا عن قوله تعالى للحبيب صلى الله ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً﴾ (الإسراء).

---

(١) صحيح الجامع (٤٢٨٧).

وليعلم كل من تكبر بعلمه أنه كمثل الحمار يحمل أسفارا أو كالكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث .

٦ – **التكبر بكثرة العبادة والعمل الصالح**: وهذا الصنف من المسلمين ينظر إلى نفسه وعمله ويظن أن أحداً لم يعمل سواه أو مثله فيصاب بالكبر فيحبط الله عمله فليعلم أن الله هو مانح الهداية والوقت والصحة لأداء هذه الصالحات من الأعمال ولو شاء الله لشتت قلبه وأكثر عليه همه أو لأصابه بالأمراض والأسقام فينظر إلى الناس وما اقترفوه من ذنوب ويعتبرهم هلكى وهو العبد الناجي الوحيد وقد قال صلى الله: «**إذا سمعتم الرجل يقول هَلَك الناس فهو أهلكهم أو فهو أول الهالكين**»[١] .

فلا تسخر من أخيك فيعافيه الله ويبتليك ولا تستطل بالعبادة على خلق الله وكذلك فلنقرأ ولنتفكر في قوله ﷺ : «**لن يدخِل أحدكم الجنة عمله**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته**» قالوا ففيم العمل يا رسول الله!؟ قال: «**تدخلون الجنة برحمة الله وتقتسمونها بأعمالكم**»[٢] .

فلا نجاة إلا برحمة الله عز وجل ولكي ننال هذه الرحمة لابد أن نكثر من العمل الصالح وأن نرحم عباد الله ونتواضع لهم فالعبرة بالخواتيم ونسأل الله أن يحسن خاتمتنا أجمعين . . اللهم آمين .

٧ – **الكبر بالحسب والنسب**: فمهما علا شأن الإنسان لابد أن يفكر مم خلق؟ خلق من نطفة مَذره وآخرة إلى جيفة قذرة وهو يحمل بين جانبيه العَذَره .

وقد ورد أن رجلاً افتخر على آخر عند موسى عليه السلام فقال أنا ابن فلان ابن فلان حتى عد تسعة من آبائه فأوحى الله إلى موسى قل للذي افتخر بآبائه إن التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم .

وإذا كان الإنسان جاهلا وخسيساً وكذاباً ومنافق وقلبه مريض فكيف يرفع ذكره

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد .
(٢) متفق عليه لأبي هريرة واللفظ لمسلم .

النسب أو الحسب وقد قال أحد الشيوخ لرجل افتخر بأصله أنا أعلم بأصلك وفصلك . . أما أصلك فيُداس بالأقدام . . وأما فصلك فتغسل منه الأبدان .

فنجد الآن بعض أثرياء المسلمين في الدول العربية وفي غيرها لا يزوجون بناتهم وأبناءهم مثلاً إلا لمن يعادلهم في الثراء والغنى وإذا ذكَّرته بكلام النبي ﷺ باختيار صاحب أو صاحبة الدين قال: هذا ما وجدنا عليه آباءنا وأجدادنا وإنا على آثارهم مقتدون فنسأل الله أن ينهض المسلمون من غفلتهم وانشغالهم بأمور الجاهلية الأولى وكنت أقصد أن أقول الثانية والأَوْلى أن يدعوها كما قال ﷺ : «**فإنها نتنه**» (المعنى القلبية والعصبية) .

٨ – **التكبر بالجمال**: وهذا المرض القلبي أغلبه في النساء دون الرجال وهذه هي طبيعة المرأه أن تتفاخر بجمالها أمام الأخريات وحُقَّ لها أن تعلم أنه ليس جمال الجميل بفعله فيُحمَد عليه ولا قبح القبيح بذنبه فيُلام عليه وإنما الخالق هو الذي صور وخلق في أحسن تقويم .

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾(آل عمران ٦) .

وسبحان الله قد يمرض الجميل أو يموت أو يحترق وجهه ويشوه فأمراض العصر خطيرة وفتاكة فالتقوى والخوف من الله خير حفيظ .

﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ وإن لم تسقم من الأمراض فسيأتيها العجز ويذهب الجمال ثم تعود إلى التراب مرة أخرى .

٩ – **التكبر بالمال**: الذي هو صفة عارضة يأتي ويذهب ويزول في لحظة والقرآن أعطانا أمثلة كثيرة منها قصة قارون في سورة القصص وصاحب الجنتين في الكهف وكذلك أصحاب الجنة في سورة القلم فبدل أن يشكروا نعمة الله عليهم قابلوها بالكفر والتكبر .

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دار البَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ القَرَارُ ﴾ (إبراهيم) .

وقوله عن قارون: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن

دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ (القصص).

وقوله عن صاحب الجنتين: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً ﴾ (الكهف).

أما أصحاب الجنة: ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ (القلم).

١٠ – الكبر بالبطش والظلم والقوة: وهذا نجده في هذه الأيام بين الأقطار والبلدان فنجد الموت الجماعي للأبرياء بدون ذنب ولا سبب وكذلك الفساد في الأرض بسبب هذا الجبروت ولكن دائما علينا أن نتذكر كمؤمنين أن الله هو أعلى وأكبر فسرعان ما تنتهي هذا الدول بظلمهم فردا وجماعات . . . والله المستعان على ظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ (الفجر).

كيف أعالج نفسي من مرض الكبر؟

- بأمر واحد هو أن الإسلام لابد أن يعرف نفسه فإذا عرف انه مخلوق ضعيف لا يملك من أمر نفسه شيئا وعلم أن له ربا لا يليق الكبر إلا به فهنا يبدأ يفكر في الآخرة كيف نشأ وكيف سينتهي نشأ من تراب وسيعود إلى التراب والنهاية سيقف أمام الله للحساب والجزاء والدليل على ذلك كلام الرحمن عز وجل:

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً * إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ (الإنسان).

﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ

السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾ (عبس).

فالإنسان الضعيف الذي يعتمد في وجوده على أشياء بدونها قد يأتيه الهلاك مثلاً إنه يحتاج إلى الطعام والشراب والهواء والدواء والنوم وهو في هذا الاحتياج الكبير معرض للأمراض والأسقام والأوجاع فهو مخلوق ضعيف.

قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً ﴾ (النساء).

فلذلك طالما أنه ضعيف فهو محتاج إلى الله سبحانه وتعالى فلماذا يتكبر؟ ألا يخاف أن يسلب الله سمعه وبصره ويختم على قلبه فلا يرى ولا يسمع ولا يفقه فلماذا التكبر إذاً!؟

- فعلينا إخواني أن نزكي أنفسنا وأن نحاسب أنفسنا على ما قدمت من صغير أو كبير فالكَيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت وعلينا أن نتذكر دائماً أن المرء بأصغريه بقلبه ولسانه فاللهم اغفر ذنوبنا واستر عيوبنا وزكِ أنفسنا وطهر قلوبنا ونَوِّر قبورنا واجعلنا هادين مهتدين لا ضالين ولا مُضلين برحمتك يا أرحم الراحمين.. آمين.

* * * * *

obeikandl.com

المبحث السابع:

بعض أعمال القلب وأهميتها في الإيمان

والقلوب ليست دائماً على حال واحد، إنما القلوب كالدواب كما قال بعض السلف رضي الله تعالى عنه، وهم يمثلون بالدواب لأنهم كانوا يعيشونها يومياً، أحياناً يركب الإنسان على هذه البغلة فتمشي وتهرول وتهملج، وأحياناً تستعصى وتقف فيضربها ويحركها، فلا تمشي بسبب ما من الأسباب، والقلوب كذلك، في يوم من الأيام، ولحظةٍ من اللحظات، وساعةٍ من الساعات تجد نفسك تقرأ القرآن بانشراح وانفتاح وطمأنينة، وتجد نفسك منشرحةً لعبادة من العبادات، أو لطاعة من الطاعات، أو لذكر من الأذكار، أو لعمل من أعمال الخير، مهما استكثرت منه؛ فالنفس منشرحة تقول: يا ليتني أستمر على هذا العمل! ويا ليتني لا انقطع عن حلاوته!.

ولما كان إيمان القلب من الأهمية بمكان، كان لا بد أن يكون حظ الحديث عنه من الذكر الحكيم الذي أنزله الله لإصلاح حياة العالمين وتزكيتها هو الحظ الأوفر، وهكذا جاء في القرآن آيات كثيرة تبين أعمال القلب وأهميتها في الإيمان - أصلاً وجوباً أو كمالاً - ولو ذهبنا في جمعها واستقصائها لطال المقام جداً.

وحسبنا أن نورد ما يتجلى به صحة مذهب أهل السنة والجماعة وشذوذ المرجئة المنكرين لدخول أعمال القلب في الإيمان - عدا التصديق القلبي - ويتضح أن مصدر القوم في التلقي لم يكن الكتاب والسنة، وإلا فكيف يضربون صفحاً عن هذه الآيات المحكمات ويعتمدون - أكثر ما يعتمدون - على آية واحدة ليست في مورد الإيمان الشرعي، بل حكاها الله تعالى عن قوم قالوها في التصديق الخبري المجرد وهو قوله تعالى على لسان إخوة يوسف: ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا ﴾[1]!!.

وهذه بعض أعمال القلب مقرونة بما يدل عليها من الآيات، منها ما هو في حق

---

(١) يوسف: ١٧.

المؤمنين ومنها ما هو في حق الكفار دالاً على أمور سوى التكذيب - الذي لم يقر المرجئة بغيره - ونظراً لكثرتها اكتفيت بما ورد فيها العمل مسنداً إلى القلب - أو الصدر - بالمنطوق الصريح:

١ - الوجل: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[١].

٢ - الإخبات: ﴿ ولِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾[٢].

٣ - السلامة من الشرك دقيقه وجليله: ﴿ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ ولا بَنُونَ * إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[٣].

وقال في إمام الموحدين: ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[٤].

٤ - الإنابة: ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾[٥].

٥ - الطمأنينة: ﴿ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾[٦] ﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾[٧] واشتراطها في المكره: ﴿ إِلا مَنْ أُكْرِهَ وقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالأِيمَانِ ﴾[٨] فكيف بغيره.

٦ - التقوى: ﴿ ذَلِكَ ومَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾[٩].. ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ﴾[١٠].

٧ - الانشراح: ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ﴾[١١].. ﴿ أَفَمَنْ

---

(١) الأنفال: ٢.
(٢) الحج: ٥٤.
(٣) الشعراء: ٨٨، ٨٩.
(٤) الصافات: ٨٤.
(٥) ق: ٣٣.
(٦) البقرة: ٢٦٠.
(٧) الرعد: ٢٨.
(٨) النحل: ١٠٦.
(٩) الحج: ٣٢.
(١٠) الحجرات: ٣.
(١١) الأنعام: ١٢٥.

شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾[١] .

٨ - السكينة: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[٢] .

٩ - اللين: ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾[٣] .

وقد أسنده للقلب والجوارح هنا .

١٠ - الخشوع: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾[٤] .

١١ - الطهارة: ﴿ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وقُلُوبِهِنَّ ﴾[٥] .

وهي في آية الحجاب ، فدلت على التلازم بين عمل القلب وعمل الجوارح .

١٢ - الهداية: ﴿ ومَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾[٦] .

وهي مما يدل على تلازم أعمال القلب .

١٣ - العقل: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾[٧] .

١٤ - التدبر: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[٨] .

١٥ - الفقه: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾[٩] .

١٦ - الإيمان: ﴿ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ ولَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ ﴾[١٠] .

وفي الإيمان الخاص: ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ولَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ولَمَّا

---

(١) الزمر: ٢٢ .
(٢) الفتح: ٤ .
(٣) الزمر: ٢٣ .
(٤) الحديد: ١٦ .
(٥) الأحزاب: ٥٣ .
(٦) التغابن: ١١ .
(٧) الحج: ٤٦ .
(٨) محمد: ٢٤ .
(٩) الأعراف: ١٧٩ .
(١٠) المائدة: ٤١ .

obeikandl.com

يَدْخُلِ الأيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾[١] ولهذا كان فيهم الصنف الذي سماه الله: ﴿ والْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾[٢].

١٧ - السلامة من الغل للمؤمنين: ﴿ ولا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾[٣].

١٨ - الرضا والتسليم: ﴿ فَلا ورَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ ويُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾[٤].

ويلاحظ أن الإسناد فيها للنفس لا للقلب أو الصدر ؛ لحكمة دقيقة هي أن النفس مكمن الهوى والاعتراض .

فوائد تتعلق بأعمال القلوب:

إحداهما: تتعلق بتلك الأعمال عامة .

والأخرى: تختص بموضوع المرض الأكبر الذي يعتري القلوب وهو مرض النفاق .

فالأولى: هي أن من تأمل ما سبق شرحه من أعمال القلوب المعدودة شروطاً للشهادتين - أعني الرضا واليقين والمحبة والصدق والإخلاص - كما وردت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وطابق ذلك بأحوال المخلوقين وطرائق العابدين يجد أن كل شرط من هذه الشروط يخرج طائفة من طوائف الضلال بخصوصها عن الصراط المستقيم وإن كان قد يعم سائرها ؛ إذ التلازم بينها لا يخفى وهذا يشمل أمم الكفر والشرك والطوائف الملحقة بها من هذه الأمة .

* فالرضا: يخرج المستكبرين عن أمر الله وشرعه ودينه ، إما بسبب الحسد والمنافسة ، كحسد أبي جهل أن تكون النبوة في بني عبد مناف ، وكحسد اليهود أن تكون النبوة في ذرية إسماعيل ، وما حصل لعبد الله بن أبي بن سلول حين أضاع قدوم النبي ﷺ إلى المدينة

---

(١) الحجرات: ١٤ .
(٢) التوبة: ٦٠ .
(٣) الحشر: ١٠ .
(٤) النساء: ٦٥ .

أحلامه في الملك ونحو ذلك، وأصل ذلك كله حسد إبليس لآدم عليه السلام.

وإما بسبب التمسك بما كان عليه الآباء والأجداد وما ورثوه من الشأن والأمجاد واستكبار النفوس أن تتركه لأجل أناس من البشر لا سلطان لهم ولا أبهة: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴾[1].

وإما الاعتداد بما هم عليه من الحضارة والرقى والعلم، الذي يحملهم على احتقار دين الله واستصغاره: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾[2].

وغير ذلك من الأسباب المانعة من الانقياد والاستسلام والقبول، الذي عبرنا عنه بالرضا كما عبر الشارع.

ومن أعظم مظاهر ذلك في المنتسبين للإسلام اتباع المناهج الفلسفية - والتحاكم إلى القوانين الوضعية والتماس الهدى والعدل من غير كتاب الله تعالى وسنة رسوله، ونحوها مما يعلن عن عدم الرضا بما أنزل الله والاكتفاء به.

* والمحبة: تخرج الكارهين لأمر الله وشرعه ودينه كله أو بعضه والمشركين في محبته المعظمين لغير الله وغير شرعه الذين اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله واتخذوا من غير الإسلام مناهج يعظمونها كتعظيمه - كما كان الفلاسفة كابن سينا وابن رشد يعتقدون أنه ما طرق العالم ناموس أعظم من ناموس الإسلام، لكن ما عند الحكماء والفلاسفة القدماء من الناموس فيه خير عظيم وهدى مبين وأن رسول الله ﷺ من أعظم الحكماء والمصلحين كأرسطو وأفلاطون وكما قال طاغوت التتار زمن شَيْخ الإسْلام ابن تيمية: رجلان عظيمان محمد وجنكيزخان!!

وكما يعتقد كثير من المعاصرين ويرددونه - المنتسبين للإسلام وغيرهم - من أن الإسلام من أعظم العوامل في بناء الحضارة الإنسانية في القرون الوسطى وما يزال فيه كثير

---

(١) الصافات: ٣٥، ٣٦.

(٢) غافر: ٨٣.

من الإيجابيات التي يمكن أن تسهم في الحضارة المعاصرة، أو أنه ميزة ما يسمونه العالم الثالث، الذي يمكن أن يصل بشعوبه إلى ما وصل إليه المعسكران الكبيران والالتحاق بركب الحضارة والتقدم .

والمتحذلقون منهم يقولون: إن ما في الإسلام من نظم ومبادئ تغني المسلمين عن الاقتباس من الشرق أو الغرب، لكن لا يغضون من قيمة ما عند الشرق والغرب من النظم والمبادئ ولا يرونهم في حاجة إلى الإسلام .

وأمثال ذلك كثير وخصوصاً على أفواه رجال الضرار ومنابره، ومن المظاهر العادية للتسوية في التعظيم - إن لم يكن تعظيم الكفر أعظم - أن هؤلاء الناس يتحرجون من تسمية الأمم المتحضرة كفاراً، وبل ربما نفروا ممن يطلق عليهم ذلك - حتى لقد قام بعض كتاب المدرسة العصرية بالسخرية العلنية ممن يزعمون أن المسلمين وحدهم سيدخلون الجنة وأن أديسون، وباستور وفلان وفلان من رواد الحضارة والعلم سيدخلون النار!!

* واليقين: يخرج الفلاسفة والملاحدة والمتعمقين في الكلام وأصحاب النظريات عن الكون ونشأته والإنسان ومهمته ومن يلحق بهم من علماء ما يسمى علم الاجتماع أو علم النفس السائرة على غير هدى الله، فهؤلاء لا يصلون إلى اليقين ولا يستقر لهم قدم بحال في كل ما يبحثون فيه مما ليس داخلاً في نطاق العقل البشري، وحسبك أن الله تعالى قال فيهم: ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْض ولا خَلْقَ أَنْفُسهِمْ ومَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً﴾[١] .

ولولا خشية التطويل لذهبنا في سرد اعترافاتٍ من اعترافات هؤلاء بالعجز والجهل والشك والحيرة، سواء الكفار منهم أو المشتغلون بذلك من المسلمين؛ كالرازي والجويني والشهرستاني .

ويلحق بهؤلاء جهال الأرض وهم أكثر العالم الذين لا دين لديهم ولا هدى .

* والصدق: يخرج الكاذبين في دعوى الإيمان؛ وهم المنافقون وهم كثير في هذه الأمة

(١) الكهف: ٥١ .

ومرضهم وبيل ، ولذا سنخصه بالحديث في الفقرة التالية .

* والإخلاص: يخرج المشركين العرب وأهل الكتاب وكل من يزعم أن دينه خير الأديان وهو لا يخلص التوحيد لله تعالى - إلا في حال الشدة والكرب - ويلحق بهم من المنتسبين للإسلام كل من تعلق بالأموات من الأنبياء والصالحين ودعاهم ورجاهم ونذر لهم معتقداً أنهم يقربونه إلى الله زلفى - كما كان المشركون يعتقدون في آلهتهم ومن يعتقد من الشيعة والصوفية أن أئمتهم وأولياءهم يتصرفون في الكون ويعلمون الغيب ويسبغ عليهم ما هو من خصائص الألوهية .

كما يخرج به المشركون في الطاعة والاتباع ، الخارجون على مقتضى قوله تعالى: ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلَهَ إلا هُو وأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾[1] من المتبعين للمناهج البشرية والقوانين الوضعية ، فكل هؤلاء لم يخلصوا لله ولم يحققوا شهادة أن لا إله إلا الله .

كما يلحق بهم - من وجه - المشركون في الإرادة كأصحاب الأهواء والحظوظ العاجلة وهو الشرك الخفي الذي قل من ينجو منه .

فلا عجب إذن أن يكثر الحديث في الكتاب والسنة عن هذه الأعمال ، منبهاً أصحاب الصراط المستقيم على أهميتها ومبيناً هلاك من ضل فيها أو أعرض عنها ، ولا عجب أن يكون من أعظم عوامل انتشار الإرجاء بل عوامل تقهقر الأمة وانحطاطها وإخفاق الدعوات الإسلامية وفشلها ، إهمالها في تحقيق هذه الأعمال وتفريطها فيها .

الفائدة الأخرى: وهي تنبيه ضروري يتعلق بأعظم مرض من أمراض القلوب وهو النفاق ، فكما أخطأ كثير من الناس في مفهوم الكفر ومعناه وحصروه في صورة واحدة هي إنكار وجود الله ، أو إنكار أنه الخالق الرازق المدبر ونحو ذلك - أخطأ كثير من الناس أيضاً - في مفهوم النفاق الأكبر وحصروه في صورة واحدة كذلك ؛ هي أن يظهر الإسلام وهو يبطن اعتقاد كذب الرسول ﷺ في كل ما جاء به وعدم الإيمان بدين الإسلام كله وعدم الرضا بشيء منه .

---

(١) الأنعام: ١٠٦ .

وهذه - وإن كانت أجلى صورة وأكبرها - ليست الصورة الوحيدة، بل النفاق الأكبر كالكفر الأكبر له صور كثيرة جداً، فكما أن الإنسان قد يكون مؤمناً ويخرج من الإسلام بكلمة أو فعل، فكذلك قد يكون منافقاً النفاق الأكبر بسبب قول أو فعل من أقوال القلب وأعماله مع اعتقاده بقية الدين وإظهاره للشرائع والشعائر.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر في كتابه للمنافقين أحوالاً متفاوتة في النفاق الأكبر؛ فمنها الصورة الكاملة - كحال المذكورين أول البقرة: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[١].

أو أول المنافقون: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾[٢].

ومنها صور دون ذلك، كحال المذكورين في سورة القتال (محمد): ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ ﴾[٣] أو حال المستهزئين بقراء الصحابة يوم تبوك، الذين أنزل الله فيهم: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً ﴾[٤].

فلا شك أن بين من يبطن الكفر بالله واليوم الآخر جملة واحدة - المتضمن تكذيب الرسول وبطلان القرآن - وبين من يقول للكفار سنطيعكم في بعض الأمر أو يستهزئ بشيء مما عظمه الله فرقاً وإن اتحد الحكم عليهما بالردة والكفر، فإن بعض الكفر أغلظ من بعض،

---

(١) البقرة: ٨، ٩.
(٢) المنافقون: ١.
(٣) محمد: ٢٥، ٢٦.
(٤) التوبة: ٦٥، ٦٦.

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾[١].

وقال: ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً ونِفَاقاً﴾[٢].

فجعل بعض الكفر والنفاق أشد من بعض.

والمقصود أن نعلم أن الرجل قد يكون في باطنه مؤمناً بالدين في الأصل والجملة ولكنه يكره شيئاً مما أنزل الله، أو لا يقر به في قلبه ولا يعتقد الالتزام به، فيكون حكمه حكم الكافر بالدين كله، وذلك كمن يكره بقلبه تحريم الربا ويرى ذلك مخالفاً للمصلحة وغير مستقيم مع العقل إذا كان الطرفان متراضيين عليه ونحو ذلك.

ومن يكره ما أنزل الله بشأن الحجاب وستر النساء عن الاختلاط بالرجال ويراه نوعاً من الظلم والامتهان للمرأة، أو يراه عائقاً عن التنمية مخالفاً لمصلحة المجتمع.

أو من يعتقد أن أحكام الجهاد ومقاتلة الكفار وسبي نسائهم وغنم أموالهم لا يليق بكرامة الإنسان وحريته ولا يتناسب مع المساواة الإنسانية.

ومن يكره أن يقول أو يعتقد أن هؤلاء الكفار العصريين، أو أصحاب الحضارات المنقرضة - ومنهم الحكماء والأدباء والمخترعون - يحاسبهم الله يوم القيامة ويعذبهم بالنار ولا يقبل منهم أي عمل أو إحسان.

ومن يعتقد أن من حق أتباع أي دين أن يدعوا إلى دينهم وأن ينشروه في كل مكان بتفاهم مع دعاة الإسلام ووئام بين جميع الأديان.

ومن يكره ما أنزل الله بشأن معاملة الكفار وأحكام العلاقة بهم ويعتقد أن الأوفق والأصلح هو مداهنتهم ومجاملتهم - بمقتضى الاتفاقيات الدبلوماسية والأعراف الدولية التي ارتضاها العالم المتحضر والأمم المتحدة.

ومن يكره ما شرعه الله من أحكام أهل الذمة ويرى أنه آن الأوان لإلغاء الجزية وتحقيق

---

(١) التوبة: ٣٧.

(٢) التوبة: ٩٧.

الأخوة الوطنية .

ومن يكره ما جاء في القرآن والسنة من أخبار الأمم الكافرة وذمها وهلاكها بسبب معاصيها ، أو يرى أن تاريخ الحضارات يجب أن يدرس وفق المنهج الذي يسير عليه المنهج الغربي تحليلاً واستنتاجاً .

وصور كثيرة مشابهة كلها تفصح عما في قلب صاحبها من نفاق أكبر ، وإن كان لا يكره بقية الأحكام ومظهراً لشعائرالإسلام .

ضرورة الاهتمام بأعمال القلوب:

إنَّ علينا جميعاً - نحن طلبة العلم - أن نراجع أول ما نراجع موقف قلوبنا مع ربنا تبارك وتعالى ، وحال هذه القلوب من التزكية والطهارة والتصفية والنقاوة ، وأن نتعرف على أعمال القلوب ، ونعلم مقدار ما لدينا منها ، وماذا ينقصنا ، وكيف فهمنا لها ، ومعرفتنا وعلمنا بها ، أهي كما يرضى الله عز وجل وكما كان السلف الصالح ، أم هنالك شيء من الخلل فيها فيتدارك ، فإذا صلحت هذه القلوب ؛ فإن الحال يكون كما في الحديث الصحيح: **«ألا وإنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ»** (١) .

إنَّ هذا الدين إنما نزل في حقيقته لتزكية القلوب وإصلاحها ، ولهذا يقول ﷺ : **«أنا دَعْوَةُ أبي إِبْرَاهِيمَ»** (٢) .

ودعوة أبينا إبراهيم هي ما في قوله تعالى: **﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾**(٣) .

فإبراهيم عليه السلام دعا الله لما بنى هذا البيت العظيم "العتيق" أن يبعث في هذه الأمة هذا الرسول ﷺ وبهذه الأهداف والأغراض ، وقد استجاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دعوة

---

(١) رواه البخاري ومسلم وابن ماجة والدارمي وأحمد .
(٢) رواه أحمد .
(٣) البقرة: ١٢٩ .

إبراهيم عليه السلام كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ (١) .

فنلاحظ هنا أن هذه الأمور الثلاثة المدعو بها اختلف اختلفت ترتيبها ، فتقدمت التزكية على التعليم ، ولاشك أن الإنسان لا يمكن أن يتزكى إلا بأن يتعلم الكتاب والسنة ، فيتعلم الهدى الذي جاء به النبي ﷺ؛ لكن عندما تتقدم التزكية فهى من باب تقديم الغرض والغاية على الوسيلة التي تؤدي إلى هذه الغاية .

فالأصل هى: تزكية هذه القلوب التى هى موضع نظر الله من العبد كما في الحديث: «إِنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» (٢) ، وهذه القلوب هى محل الابتلاء والتمحيص ومحل الأعمال التى لو استعرضناها ؛ لعجبتم ولعلمتم أن لهذه القلوب شأناً عظيماً عند الله تبارك وتعالى ، كيف لا والقلب هو الذي إذا كان حياً فإن الجسد يحيا معه ، وإذا مات مات الجسد(٣) .

* * * * *

(١) الجمعة: ٢ .

(٢) رواه مسلم .

(٣) الشيخ الدكتور سفر بن عبدالرحمن الحوالي .

openkandil.com

المبحث الثامن:

وقائع تبين أهمية القلب في أعمال العبد

يجب على المؤمن الذي يريد تنقية قلبه، ويحرص على تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينتبه إلى هذه الحقيقة، والأدلة عليها كثيرة جداً، مما ثبت وصح في الوحي، وكثيرة من واقع الناس، وهو المشاهد من أحوال الناس الذين كانوا على ذنوب وفجور ثم تابوا واستقاموا، والذين كانوا على طاعة وخير وعلى طلب علم ودعوة ثم انحرفوا وحاروا، نسأل الله العفو والعافية.

١ - الرجل الذي أوصى عند موته بأن يحرق:

كمثل حديث الرجل الذي أوصى بنيه عند موته، وقد رأى نفسه مسرفاً في المعاصي، فخاف من الله تعالى أن يلقاه بهذه الحال، فأوصى أن يحرقوه ويسحقوه، ويذروه في الريح، مع أن هذا الرجل ارتكب ذنباً أكبر ووقع في إثم عظيم، ولكن بسبب هذا الاستعظام والخوف والحياء غفر الله ذنوبه المتأخرة والمتقدمة، وهذا الذنب العظيم والخطأ الجليل هو ظنه أن الله لا يقدر عليه إذا هو مات.

يقول: (إذا أنا مت فاجمعوا الحطب واحرقوني، ثم ذروني في الهواء، وضعوا نصفي في البحر، والنصف الآخر في البر، فوالله لئن قدر الله على ليعذبني عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين، ثم جاءه السؤال من رب العالمين: لم فعلت ذلك؟ - ولم يكن السؤال عن الموبقات ولا عن الذنوب الأولى، إنما كان عن هذا الخطأ الكبير - فقال: خوفك يا رب، أو خشيتك يا رب، فغفر الله تبارك وتعالى له).

إذاً، إذا اقترن بالذنوب والمعاصي خوف وتعظيم، وهيبة لله تبارك وتعالى، فإن هذه الذنوب: إما أن تمحى أو تكفر، أو تكون - كما قال الشيخ وهي كبائر - صغائر، أو كالصغائر، فتأخذ حكمها، كما قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا

تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[1] تكفر لما اقترن بها من خوف وخشية وذلة، وهذا الدليل الأول.

٢ - توبة الرجل الذي قتل مائة نفس:

والدليل الآخر هو دليل الرجل قاتل المائة نفس، وقد كان قتل في أول الأمر تسعة وتسعين، فذهب إلى العابد فلم تعجبه فتواه فقتله.

وهذا الحديث - على كثرة ما فيه من الحكم والدلالات - يدل على فضل العالم على العابد، فقد قال هذا القاتل لذلك العابد: «**إني رجل قتلت تسعة وتسعين نفساً فهل لي من توبة؟ فاستعظم الراهب ذلك، فقال: لا أجد لك توبة**».

وهذا من قلة العلم والفطنة - كما ذكر العلماء - فإذا قلت له: لا أجد لك توبة؛ فكيف تأمنه على نفسك، وعلى غيرك من الناس؟! على أقل القليل كان من الحكمة أن تقول له ما تدفع به شره في هذه الحياة الدنيا.

«**فلما قال له ذلك أكمل به المائة، وبعد ذلك ذهب إلى العالم، فأخبره بأن له توبة، وأرشده أن يذهب إلى القرية الصالحة ليعبد الله تبارك وتعالى فيها، ثم كان من أمره: أن قبضه الله تعالى واختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، وهذا فيه دليل على أن الملائكة تجتهد في أمر الله تبارك وتعالى، كما نجتهد بني آدم، فأخذوا ينفذون أمر الله تعالى، فملائكة الرحمة تقول: رجل تائب مقبل على الله، كيف ندعه لكم؟ وملائكة العذاب تقول: وأي توبة حصلت لرجل قتل مائة نفس، فحكم الله بينهم وهو الحكيم العليم أن انظروا إلى أي القريتين أقرب فألحقوه بأهلها**».

وجاء في بعض الروايات، من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «**أنه أمر هذه أن تتباعد * وأمر هذه أن تتقارب * فقاسوا فوجدوه إلى أرض التوبة أقرب فغفر**

---

(١) النساء: ٣١.

الله تبارك وتعالى لـــه * وتولته ملائكة الرحمة» .

وعـندما نـستعرض موضـوع الـتوبة - إن شـاء الله - سـنتعرض مـسألة هـل تقـبل توبة القاتل أم لا؟

وهـذا الـرجل القاتـل لمـا اقـترن بـه الخـوف مـن الله دفعـه إلى أن يـبحث عمـن يـرى لـه توبة ، فقام بقلبه من ذلك الخوف والإنابة ما دفع تلك الكبيرة العظيمة .

٣ - ماعز والغامدية:

ومـن الأدلـة علـى ذلـك قـصة ماعـز والغامديـة رضـى الله عـنهما حـيث إنهمـا أتيا إلى النبيﷺ يريدان أن يطهرهما وغيرها كثير .

وقـد أحـببت بهـذه المناسـبة أن أدل علـى مـرجع مفـيد في هـذا الـباب ، ومفـيد في جـوانب عـدة ، وهـو كـتاب الـتوابين للإمـام ابـن قدامـة - رحمـه الله - بتحقـيق الـشيخ عـبد القـادر الأرنـؤوط ، مـع العلـم أن المحقـق لم يعلـق عليـه في مواضـع كـان ينبغـى أن يعلـق عليـه فـيها ، مـنها أن أغلـب مـن يـتوب كمـا في هـذا الكـتاب يترك الدنيا بالكلية ، ويـذهب في الـبراري والجـبال أو في المساجد ، ويـترك كـل شـيء ، ولـيس هـذا مـن صفة الـتوبة الـشرعية ، ولكـن في الكـتاب فـوائد ، ودرر عظـيمة جـداً ، ولا سـيما الـذين يـتوبون مـن الطـرب والغـناء ، ومـن الفـسق والفجـور كحـال العـالَم الـيوم والله المستعان!

ونقتـصر علـى ذكـر أو عـرض بعـض الـتوبات الـتى تـتعلق بحـال العاصـى الذي من خلال معصيته اهتدى ، وقد ذكر صاحب الكتاب قاتل المائة وتوبته .

٤ - الصحابي الجليل أبي خيثمة:

ومن التائبين الذين كانت ذنوبهم سبباً لتوبتهم الصحابي الجليل أبو خيثمة .

وقـد نقـل الإمـام ابـن قدامـة توبـته بالـسند ، وهـو عـالم مُحدِّث فقـيه بـارع كما هو معـروف ، ولـذلك يـورد القـصص الـتي يـوردها بالأسـانيد إلى منتهـى الـسند ، سـواء

أكان إلى النبي ﷺ أم إلى أحد العلماء من المؤلفين، أو إلى كتب رواة الإسرائيليات، أو أخبار بني إسرائيل إن كان السند ينتهي إليهم.

وكان ابن قدامة رحمه الله تعالى من الأئمة المجاهدين مع صلاح الدين الأيوبي في معاركه، ومع ذلك كتب المغني الذي هو من أعظم وأنفع كتب الفقه المقارن، وغير ذلك من المؤلفات النافعة، فذكر بإسناده إلى ابن إسحاق صاحب السيرة.

يقول: تخلف أبو خيثمة أحد بني سالم عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، حتى إذا سار رسول الله ﷺ رجع أبو خيثمة ذات يوم إلى أهله.

والتخلف عن الغزو كبيرة، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾[1] فاستخدم أقوى أنواع التعبير في التحذير والنهي، فلا يصح، ولا يليق أن يتخلف أحد عن رسول الله ﷺ، ولا يرغب بنفسه عن نفس رسول الله ﷺ، فيذهب رسول الله ﷺ أفضل الخلق وأكرمهم على الله في الحر والرمضاء والحرب وهذا في الظل الظليل مع الأهل والبنين، وهذا هو الذي وقع فيه أبو خيثمة رضي الله عنه.

فعاد إلى امرأتين له في عريشين له في حائطه - أي: في مزرعته - وقد رشت كل واحدة منهما عريشها، وبردت له فيه ماءً، وهيأت له طعاماً، فالزوجة، والعريش، والماء البارد والطعام، كلها في غاية المغريات المثبطات في زمانهم، فلما دخل قام على باب العريش ينظر، وهنا اشتعل حر الذنب، ثم قال: رسولُ الله ﷺ في الضحى والريح والحر - والضحى: حر الشمس وأبو خيثمة في ظل، وماء بارد، وطعام مهيأ، وامرأة حسناء، ما هذا بالنَّصَف!، أي ليس هذا من العدل والإنصاف، ولا يليق ذلك أبداً، ولا يحق أن يكون الرسول ﷺ كذلك، وأن يتخلف عنه أبو خيثمة ويرغب بنفسه عن نفسه، ويتمتع ورسول الله ﷺ في تلك الحال، قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، فهيئا

---

(١) التوبة: ١٢٠.

لي زاداً، ففعلتا، ثم قدم ناضحه فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ، فأدركه حين نزل تبوك، فلما رآه الرسول ﷺ راكباً من بعيد قال: «**كن أبا خيثمة**»، فذهبوا فإذا به هو، فقالوا يا رسول الله! هو أبو خيثمة فقال رسول الله ﷺ: «**أولى لك أبا خيثمة**»، ثم أخبره الخبر؛ فدعا له رسول الله ﷺ.

ولو أن أبا خيثمة خرج أول الأمر مع رسول الله ﷺ ما كان ليقع في قلبه من الإيمان والأثر والخوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والحرص على الجهاد، والرغبة فيه مثل ما وقع بعدما غلبه الضعف البشري، وتراخى وضعف، ثم ذهب الناس، وذهب هو وحده، وتصور راكباً يذهب وحده في هذه البراري، وهو مستشعر للذنب في شدة الحر، وكل أمله أن يلحق برسول الله ﷺ، كيف يكون همه وحاله وشعوره في هذه الحالة؟!

إذاً قام بقلبه من حقائق الإيمان، والتوبة والندم، والاستغفار، والحياء من الله تبارك وتعالى، ومحبة رسول الله ﷺ، ومحبة اللحاق به أمور عظيمة جداً، فكان في هذا الذنب، وهذا التأخر، والتخلف خير له، وفعلاً: رب معصية أورثت ذلاً وانكساراً، خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً.

٥ - قصة الصحابي الجليل أبي لبابة:

ومثال آخر: مثال أبي لبابة رضي الله عنه، وهذا حال المتقين دائماً، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ**﴾[1] وهذا ما حدث لأبي لبابة رضي الله عنه، فيقول عن نفسه: لما أرسلت بنو قريظة إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يرسلني إليهم حين اشتد عليهم الحصار، دعاني رسول الله ﷺ، فقال: اذهب إلى حلفائك، فإنهم أرسلوا إليك سن بين الأوس.

وقد كانوا حلفاء لهم في الجاهلية، وقاتل الله اليهود في كل زمان ومكان،

---

(١) الأعراف: ٢٠١.

فاليهود هم اليهود ، فلا يصدق أن منهم متطرفون ومعتدلون ، فكلهم أخباث أنجاس فأرسلوا يريدون أبا لبابة لأنه حليفهم .

قال: فدخلت عليهم ، وقد اشتد عليهم الحصار فهشوا إلى ، ورحبوا بى ، وقالوا: يا أبا لبابة! نحن مواليك دون الناس كلهم ، فقام كعب بن أسد وقال: قد عرفت ما صنعنا في أمرك ، وأمر قومك يوم الحدائق ويوم بعاث ، وكل حرب كنتم فيها - يذكره بأيام الجاهلية - وعملنا معكم الجمائل والفعائل ، وقد اشتد علينا الحصار وهلكنا ، ومحمد يأبى أن يفارق حصننا حتى ننزل على حكمه ، فلو زال عنا للحقنا بأرض الشام أو خيبر ولم نكثر عليه جمعاً أبداً ، فما ترى؟ قال: نعم فانزلوا .

لأنه صحابى مؤمن لا يمكن أن يشير عليهم بغير ما قال رسول الله ﷺ، وهل يمكن أن يخالف حكم الله وحكم رسول الله ﷺ؟!

أو يطلب منهم غير ما طلب رسول الله ﷺ! لكن في آخر لحظة أخذته وقعة - وهو الضعف البشري الذي يقع فيه حتى الصحابة الأجلاء - فقال: انزلوا على حكمه ، ثم أومأ بيده هكذا أي: حكمه فيكم الذبح .

وهنا علم أنه قد وقع في الذنب ، وبدأ يؤنب نفسه على ما فعله مع أنه لم يره أحد من الصحابة ، ورسول الله لا يعلم الغيب ، فيقول رضى الله عنه: فندمت واسترجعت ، فقال كعب: مالك يا أبا لبابة؟ فقلت: خنتُ الله ورسوله ، فنزلت وإن لحيتى لمبتلة بالدموع من لحظتها ، والناس ينتظرون رجوعى إليهم ، حتى أخذت من وراء الحصن طريقاً آخر ، فما استطاع أن يواجه النبي ﷺ.

ثم عاد حتى أتى المسجد فأخذ رباطاً من الشعر القوي وربط ذراعيه ونفسه في سارية من سواري المسجد وأحكمه قال: وبلغ رسول الله ﷺذهابى وما صنعت ، فقال: «**دعوه حتى يُحدث الله فيه ما يشاء**» ؛ لأنه هو الذي ربط نفسه ، أي: لو كان جاءني لاستغفرت له ، فأما إذ لم يأتني وذهب ، فدعوه فإنه هو الذي جنى

على نفسه فأنزل الله في شأنه: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً ﴾[1]، وهذه قيلت فيمن هو أعظم جرماً وذنباً من أبي لبابة وهم المنافقون الذين أعرضوا عن حكم الله .

قال الزهري: وارتبط أبو لبابة سبعاً في حر شديد لا يأكل ولا يشرب ، وقال: لا أزال هكذا حتى أفارق الدنيا أو يتوب الله عليّ .

فلم يزل كذلك حتى لا يكاد يسمع صوتاً من الجهد ، ورسول الله ﷺ ينظر إليه بكرة وعشياً ، ثم تاب الله عليه ، فنودي: إن الله قد تاب عليه ، وأرسل رسول الله ﷺ إليه ليطلق عنه رباطه ، فأبى أن يطلقه عنه أحد غير رسول الله ﷺ، فجاء رسول الله ﷺ.

قال الزهري: وحدثتني هند بنت الحارث عن أم سلمة زوج رسول الله ﷺ قالت: "رأيت رسول الله ﷺ يحل رباطه ، وإن رسول الله ﷺ ليرفع صوته يكلمه ويخبره بتوبته ، وما يدري كثيراً مما يقول له من الجهد والضعف وقد كان الرباط حز في ذراعه ، وكان من شعر ، وكان يداويه بعد ذلك دهراً لتلوثه " .

فهذا الذنب والخطأ اقترن به من الخوف والحياء والمهابة والتعظيم ، ما جعل صاحبه يفعل ذلك الفعل ، فكانت التوبة من الله تبارك وتعالى عليه ، وكان ذلك خيراً له فيما نرجو له عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، مما لو لم يفعل شيئاً من ذلك ، والله تعالى أعلم .

٦ - أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان

وذكر توبة قريبة من هذه ، وهي توبة أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان ، وهذه لها قصة مشهورة في كتب الأدب ، وإن كانوا يذكرونها في كتب الأدب على أنها طرفة ، أو ملحة من الملح أو النوادر ؛ لكنها عند أهل الإيمان واليقين تدل على ما ذكره الشيخ - رحمه الله - راوياً بالسند .

---

(١) النساء: ٦٤ .

قال: دخلت عزة صاحبة كثير عزة - نسبة إلى المرأة التي عشقها، وكان هذا الرجل باطنياً خبيثاً كان على عقيدة الباطنية، وهو ممن كانوا يعتقدون أن الإمام في جبل رضوى، وأنه في أعلى الجبل، وأن عنده نمور تحرسه، وأن عنده عسل وعنده ماء، وسيخرج في آخر الزمان، وكان هذا في القرن الأول.

الشاهد أن عزة دخلت على أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان أخت عمر بن عبد العزيز وكانت تسمع من الشعراء، كأي امرأة مترفة ذات ملك وجاه ومال، فلما دخلت عزة سألتها أم البنين - لأنها تعرف خبرها مع كثير، كما يتناقل الناس الحكايات - فقالت لها أم البنين

- وهذا السؤال من فضول الكلام، وذلك كما دخل بعض الناس على أحد السلف فقال: إني أرى خشبة في سقف البيت تريد أن تسقط، فقال له: يا رجل! إن لي عشرين سنة في هذا البيت ما نظرت إلى السقف، وكانوا يكرهون فضول النظر، كما يكرهون فضول الكلام - فقالت لها: ما هذا الدين الذي يذكره، قالت: اعفيني. فقالت أم البنين: لا أعفيك حتى تخبريني؟ فقالت: كنت وعدته قبلة فأتاني يطلبها، فتحرجت عليه ولم أفِ له.

وعشاق العرب عندهم العشق على نوعين: نوع إباحي، ونوع عذري، أو الهوى العذري - بزعمهم - وهو فقط الحديث والمزح والكلام دون أي شيء آخر... وهكذا كان كثير وعزة، وطائفة من العشاق.

والنوع الآخر هو: الإباحي، وهو الذي يؤدي - والعياذ بالله - إلى ارتكاب الفاحشة، وهؤلاء كانوا من الموصوفين بالفجور، فهذه المرأة لم تعطه ما وعدته لحيائها، أو لعروبتها، أو لقبيلتها رغم أنه يخلو بها ويواعدها، ويتحدثان ويخبرها بما قال فيها من شعر، ثم يرجع كل منهما إلى مكانه، وقد قال بعضهم: كان العشق فيما مضى أن الرجل يلاقي المرأة فيحدثها وتحدثه، ويناشدها وتناشده، أما اليوم فلا يكاد يخلو بها حتى يفعل بها الفاحشة، وكأنه أشهد على نكاحها أبا هريرة

رضي الله عنه وهذا الكلام قالوه في القرن الأول .

أقول: حتى المجرمين في ذلك الزمن كانوا أخف جرماً من مجرمي زماننا ، فالمهم أن الشيطان جاء أم البنين ، فقالت: "أنجزيها منه وعلى إثمها" فأوبقها الشيطان ، ثم راجعت نفسها من وقتها واستغفرت الله ، وأعتقت لكلمتها هذه أربعين رقبة ، وكانت إذا تذكرت هذه الكلمة بكت حتى تبل خمارها ، وتقول: "يا ليتني خرس لساني عندما تكلمت بها" وتحولت أم البنين من تلك التي تستقبل الشعراء ، وتسمع أخبار العشاق ، إلى امرأة عابدة مجتهدة صالحة فاضلة ، قال: فرفضت فراش المملكة ، وقامت تحيي ليلها ، وكانت كل جمعة تحمل على فرس في سبيل الله ، أي: تجهز فرساً يخرج في سبيل الله عز وجل .

وكانت تبعث إلى نسوة عابدات يجتمعن عندها ، ويتحدثن معها فتقول أم البنين: "أحب حديثكن! فإذا قمت إلى صلاتي لهوت عنكن" .

سبحان الله! كيف رسخ الإيمان في قلبها إلى هذا الحد ، وكانت تقول: "البخيل كل البخيل من بخل على نفسه بالجنة" .

وكانت تقول: "جعل لكل إنسان نهمة في شيء ، وجعلت نهمتي في البذل والإعطاء ، والله للعطية والصلة والمواصلة في الله ؛ أحب إلي من الطعام الطيب على الجوع ، والشراب البارد على الظمأ" .

سبحان الله!! جعل الله نهمتها في العطاء والبذل والإحسان ، وهذا خير عظيم فتح عليها ، قالت: "وهل ينال الخير إلا بالاصطناع" ، وكانت على مذهب جميل حتى توفيت رحمها الله .

فالشاهد أنها وقعت في ذنب ، ولكن أعقب ذلك هذه التوبة ، وهذه الاستقامة ، وهذا الخير ، وربما لم تكن لتنال ذلك الخير ولا تحصل عليه لو لم تقع في تلك الكلمة .

٧ – عبد الرحمن القارئ:

ومثال آخر: رجل من شيوخ القراء، كان اسمه عبد الرحمن، وكان يلقب بالقس أو القسيس، أو العابد، فكان عبد الرحمن القارئ عند أهل مكة من أفضلهم عبادة، وأظهرهم تبتلاً، فمر يوماً بسلامة – وهي جارية كانت لرجل من قريش، فسمع غناءها، فأظل مولاها وعبد الرحمن عند الباب، فقال له: هل لك أن تدخل فتسمع، فأبى عليه، فألح عليه الرجل، فلم يزل به حتى وافق ودخل، فقال: أقعدني في موضع لا أراها ولا ترانى – وذلك خشية أن يفتتن بها – قال: فدخل، فتغنت فأعجبته، فقال مولاها: هل لك أن أحولها إليك، فأبى وامتنع، فلم يزل به أيضاً حتى وافق، فجاءت فجلست أمامه، فلم يزل يسمع غناءها حتى شُغف بها وشُغفت به، وعلم ذلك أهل مكة وانتشر الخبر بأن العابد الراهب تعلق بهذه المغنية، حتى إنها ذات مرة قالت: أنا والله أحبك! فقال: وأنا والله أحبك! قالت فما يمنعك من الوصال! فوالله إن الموضع لخال، فقال: إنى سمعت الله تعالى يقول: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلا الْمُتَّقِينَ﴾[1] وأنا أكره أن تكون خلة ما بيني وبينك تؤول بنا إلى عداوة يوم القيامة، قالت: يا هذا! أتحسب أن ربى وربك لا يقبلنا إذا تبنا إليه، قال: بلى، يتوب علينا لو تبنا، ولكني لا آمن أن أفاجأ بالموت، ثم نهض وعيناه تذرفان، فلم يرجع بعد.

٨ – وهيب بن الورد:

ويذكر ابن قدامة – رحمه الله تعالى – مثالاً آخر، وهو قصير لكنه عظيم جداً، قال وهيب بن الورد أحد العباد المشهورين المعروفين، بينما امرأة في الطواف ذات يوم وهي تقول: "يا رب! ذهبت اللذات، وبقيت التبعات" والتبعة هي المسئولية، فتبعات اللذات مكتوبة، والإنسان يلقى الله يوم القيامة وقد انقضت اللذات ولكن بقيت عليه التبعات، قالت: "يا رب ذهبت اللذات وبقيت التبعات، يا رب

---

(١) الزخرف: ٦٧.

سبحانك وعزتك إنك أرحم الراحمين ، يا رب مالك عقوبة إلا النار؟ " .

لأنها تذكرت أنه ليس بعد هذه الدار من دار إلا الجنة أو النار .

وكان معها امرأة أخرى صالحة تمشي معها قالت: "يا أُخية! دخلت بيت ربك اليوم؟ - تقصد الكعبة - قالت: والله ما أرى هاتين القدمين أهلاً للطواف حول بيت ربي ، فكيف أراهما أهلاً أطأ بهما بيت ربي وقد علمت حيث مشتا وأين مشتا" .

سبحان الله العظيم! تذكرت أن هاتين القدمين مشتا إلى فجور وإلى معاص ، والآن جاءها الندم ، فكان تذكرها لتلك المعاصي والذنوب ، أعظم دافع لتوفيق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لها أن تستقيم وأن تستشعر ، وفي هذا الكتاب فوائد قيمة ولو علق عليه لاكتمل جماله . (١)

٩ - علاقة العلم بأعمال القلوب:

العمل الذي تبدأ به أعمال القلوب جميعاً هو العلم . ولذلك الإمام البخاري رحمه الله جعل ترجمة في صحيحه: " باب العلم قبل القول والعمل وقول الله - تبارك وتعالى -: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾(٢) " فأول ما يطرق قلب المؤمن من معرفة الرب تبارك وتعالى والإيمان به هو العلم ، وهو أن يعلم أنه لا إله إلا الله ، وهذه هي شهادة الحق التي فسر بها بعض السلف قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٣) وهي: الصدق الذي فسر به بعض السلف أيضاً قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾(٤) وهي أيضاً الكلمة الباقية التي يفسر بها قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلَهَا

---

(١) الدكتور سفر بن عبدالرحمن الحوالي من محاضرة: من أعمال القلوب (اليقين) .
(٢) محمد: ١٩ .
(٣) الزخرف: ٨٦ .
(٤) الزمر: ٣٣ .

كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[١].

العلم بأنه لا إله إلا الله، والعلم بأن الله تبارك وتعالى حق، وأن النار حق، وأن الجنة حق، وأن البعث بعد الموت حق، وأن الرسل حق، وكل ما أخبر الله تبارك وتعالى به أو أخبر به رسوله ﷺ من أمر الغيب حق.

لكن هذا العلم أو هذه المعرفة بالله تبارك وتعالى، تخرج الإنسان إذا اعتقدها اعتقاداً جازماً عن الشك وعن الريب، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢] فهذه تخرج الإنسان عن حد الريب والشك والظن ليصبح مؤمناً بالله تبارك وتعالى.

* * * * *

(١) الزخرف: ٢٨.
(٢) البقرة: ١ - ٢.

obeikandl.com